عندما يفور التنّور

(يوميّات عسكريّ)

إهداء

إلى المقهورين في كلّ مكان

إلى الأحرار في كلّ زمان

إلى كلّ فارس شدّ العنان

أهدي كلماتي

مقدمة

يدوس أبناء الأمّة على الألغام نفسها التي زرعت في طريق الأجداد يوماً فأعاقت مسيرهم في طريق الحرّيّة والمجد...و ما ذلك إلاّ لأنّ ذاكرة الأمّة مثقوبة كما يقولون، فلو كان شعارنا " نسامح لكن لا ننسى" لأضفنا لكياستها فطانة تحفظنا من الاستعمار والاستحمار.

عندما يفور التنّور أو (يوميّات عسكريّ) توصيف حقيقيّ للمواطن المقهوروالجنديّ المأسور في جيش بلاده تحت عنوان " خدمة الوطن "(أو المواطن المستقرّ كما يسمّيه لابواسيه). وصفات المواطن المُستقر يشخصها بدقة في كتاب "العبوديَّة الطوعيَّة" بقوله:

"عندما يتعرض بلدٌ ما لقمعٍ طويلٍ؛ تنشأ أجيالٌ من الناس لا تحتاجُ إلى الحريَّة، وتتواءمُ مع الاستبداد، ويظهر فيه ما يمكنُ أنْ نسمِّيه ' المواطن المستقر، في أيامنا هذه يعيشُ المواطنُ المستقرُ في عالم خاص به، وتنحصر اهتماماته في ثلاثة أشياء:

1. الدين
2. لقمة العيش
3. بعض المسليات.

فالدِّينُ عند المواطن المستقر لاعلاقة له بالحق والعدل، وإنما هو مجرد أداء للطقوس واستيفاء للشكل، لا يمتدُّ غالبًا للسلوك، فالذين يمارسون –بلا حرج- الكذب والنفاق والرشوة، يحسُّون بالذنب فقط إذا فاتتهم إحدى الصلوات! وهذا المواطن لا يدافع عن دينه إلا إذا تأكد أنه لن يصيبه أذىً من ذلك، فقد يستشيط غضبًا ضد الدول التى تبيح زواج المثليين بحجة أن ذلك ضد إرادة الله.. لكنه لا يفتح فمه بكلمة مهما بلغ عدد المعتقلين في بلاده ظلمًا وعدد الذين ماتوا من التعذيب! ويفعل الفاحشة والفساد في بلاده جهارًا وبعد ذلك يحمد الله!

لقمة العيش هي الركن الثاني لحياة المواطن المستقر؛

فهو لا يعبأ إطلاقًا بحقوقهِ السياسيَّة ويعمل فقط من أجل تربية أطفاله حتى يكبروا .. فيُزوج البنات ويجد عملاً لأولاده ثم يقرأ الكتاب المقدس ويخدم في بيت الله ويدعوه

بحسن الختام. أما في المسليات الأخرى مثل كرة القدم، فيجد المواطن المستقر تعويضًا له عن أشياء حرم منها في حياته اليومية.. كرة القدم تنسيه همومه وتحقق له العدالة التي فقدها.. فخلال 90 دقيقة تخضع هذه اللعبة لقواعد واضحة عادلة تطبق على الجميع. المواطن المستقر هو العائق الحقيقي أمام كل تقدم ممكن .. ولن يتحقق التغيير إلا عندما يخرج هذا المواطن من عالمه الضيق .. ويتأكد أنّ ثمن السكوت على الاستبداد أفدح بكثير من عواقب الوقوف ضده."

ولا شك أن من يصنع المواطن المستقر هو المستبد وكما يقول الكواكبي: " المستبد إنسان...والإنسان أكثر ما يألف الغنم والكلاب، فالمستبد يود أن تكون رعيته كالغنم ذلاً وطاعة، وكالكلاب تذللاً وتملقاً..."

وكنتيجة لظاهرة "المواطن المستقر" تنتشر ثقافة الخوف؛ " الجدران لها آذان..." وتسود الأنانية؛ " ألف أم تبكي ولا أمي تبكي... بعد روحي ما تنبت حشيشة ...". وتغلب الانتهازية في التفكير والسلوك؛ " حلال على الشاطر..." أي الحرام عليه حلال لأنه شاطر فقط... ويفقد الإنسان إنسانيته بمرور الزمن وينحدر إلى الحيونة كما يقول ممدوح عدوان في كتابه " حيونة الإنسان"، فيركد الزمان ويتثاقل ويجثم الهم ويتطاول الليل... ولا مناص عندئذ من فوران التنور، كعلامة على طوفان الثورة التي جعلها الله سنة ثابتة لنيل الحرية المركوزة في فطرة كلّ إنسان...

وانطلاقاً من أهمية الأدب في تشخيص الظواهر الاجتماعية والأمراض النفسية كان هذا الكتاب تشخيصاً لمرحلة المواطن المستقر التي مر به الآباء وجهلها الأبناء في مرحلة ما قبل ثورات الربيع العربي وخاصة تلك التي كانت أطولها زمناً وأعظمها تضحية...

محمود الدرويش

21/09/2021

المواطن المستقرّ

تتطاول سبّابته المشهرة في وجوهنا كالسيف - نحن الجثيّ على الركب - حتّى أخالها تلامس نقطة اقتران حاجبيّ، فيزيغ بصري وأنا أتأمّلها مذعوراً، يتبعها صوته يخور هادراً كالثور الذي يستعدّ للنطح: 1+1 كم يساوي يا حيوانات؟

نصرخ بذعر يساوي اثنان.

يخور ثانية بصوت أعلى: يساوي واحد يا أوباش.

يكرّر بصوت غاضب: كم يساوي؟

نصرخ بقوة: 1+1 = 1 سيّدي!

يشقّ الصمت صدى صوتنا الذي يردّده جبل أبي نجيب القريب من القطعة العسكريّة، تتبعه قهقهة أحسبها من الجبل، لكنّي أتفاجأ بخوار الملازم نعمان مرّة ثانية: تعال يا عسكريّ يا حيوان يا ابن الحيوان.

ينصبّ العذاب على صايل - صاحب القهقهة - فلا تأخذني الشفقة لصراخه من ضربات الكبل الرباعيّ الذي يحاكي سواده سواد جبل أبي نجيب، الشاهد الوحيد على ذلّنا وخوفنا.

كان كرهي لصايل أشدّ من كرهي للملازم نعمان الذي أذاقنا صنوف الذلّ والهوان في معسكر التجمّع، بداية خدمتنا العسكريّة؛ كان صايل متوسط القامة مكتنز لحماً...تميل سمرة وجهه للسواد الكالح...دائم التجهم ... متهدل الخدين، حليق اللحية والشاربين ...لا تكاد تفترّ شفتاه الجافتان المقوستان للأسفل عن أية ابتسامة في أشد المواقف إضحاكاً للحضور...لكنه قد يفاجئك منفرداً بقهقهة صاخبة في أشد المواقف سخافة...يمشي ببطء مع تقويسة خفيفة في ظهره كقط يستعد لمعركة بانت نذرها ...دائم التذمر... سليط اللسان... يشتم الذات الإلهية لأتفه الأسباب ويبدع في الفحش في سُبابه لمن يخاصمه إبداعاً لم أعرف له نظيراً من قبل. يتباهى أنه يدرس العلوم السياسية في الجامعة، وأنه درس فكر "الزعيم" في سنواته الثلاث التي لم يتمّها بعد، على أمل أن ينهي السنة الرابعة أثناء خدمته الإلزامية....

يعود صايل إلى الرتل العسكريّ يتلوّى ألماً وينتظم في الصفّ إلى جوارنا أنا وأبي الجود. يهمس صاحبه عصام: ولماذا قهقهت يا غبيّ؟!

يجيب صايل بصوت بالكاد يسمع: "ضحكت عليكم يا أولاد ال... لأنكم لم تفهموا قصد الملازم نعمان".

يبتسم أبو الجود ويرجع رأسه للخلف قليلاً ويهمس من خلف ظهري: وما قصده يا أخا العرب؟

يمطّ صايل شفتيه...ينشمر أنفه قليلاً... يقطب حاجبيه...ثم ينظر بشزر إلى أبي الجود قائلاً: " يقصد أنّ الزعيم + ابن الزعيم = 1... أفهمت يا طبل؟!".

يهمّ أبو الجود بالكلام، لكنه يبتلع ريقه ويكظم غيظه عندما يخور الملازم نعمان طالباً منا الانصراف إلى مهاجعنا العسكرية.

تلكّأ أبو الجود قليلاً بعدما أخذ نفساً عميقاً وتوجّهنا معاً إلى مهجعنا، توقّف برهة عن السير. التفت إليّ قائلاً: بالله عليك ذكّرني بما قاله الفيلسوف الفرنسيّ "دي لابواسيه" عن أمثال هذا المسخ صايل.

ضحكت بتكاسل وقلت: دعك من ذلك يا رجل!! لنعد قبل أن ينادينا الملازم نعمان للعودة لساحة الاجتماع.

أمسك ذراعي...ضغطه بقوة وقال بإصرار: والله لن أعود حتى تقول لي ما قاله ذاك الفيلسوف العبقري، لقد أعجبني توصيفه الذي ذكرته لي البارحة يا أخي!

لمّا لم أجد بداً من مجاملته قلت: قال لابواسيه" :عندما يتعرّض بلد ما لقمع طويل تنشأ أجيال من الناس لا تحتاج إلى الحرّيّة وتتواءم مع الاستبداد، فيظهر ما يمكن أن نسمّيه المواطن المستقرّ". ثمّ أردفت قائلاً: أرضيت؟ هيّا إذا!".

قهقه أبو الجود قائلاً: لله درّك يا "لابواسيه" كأنك تعيش بيننا...ثم نادى صايل بأعلى صوته: يا سيادة المواطن المستقر صايل !وأتبع ذلك بضحكة مدوية...ضارباً كفاً بكف...

التفت إليه صايل على الفور- وكان يهم بدخول المهجع- قائلاً: ما بك يا طبل؟!

قهقه أبو الجود عالياً حتى اغرورقت عيناه ولم يجب.

مرت عشرون يوماً ونحن ندور مع روتين يومي مملّ كما يدور ثور حول رحى، نستيقظ في الخامسة فجراً،نرتّب أسرّتنا سريعاً.... نرش الماء على وجوهنا بشكل فوضوي ثم نمسحها بسرعة لافتة...نرتدي لباسنا العسكري برشاقة...نندفع خارج مهاجعنا الخمسة عندما ينادي الملازم نعمان:" دورة 62...خلال خمس عدات...وباللباس الكامل... اجتماع بالساحة فوراً ..." ويمد نعمان الألف الثانية من

كلمة "اجتماع" مركّزاً على سكون الواو من كلمة " فوراً"...مما يعني تهديداً مبطناً لمن يتأخر عن الخمس عدات ...ثم يشرع في العدّ بإيقاع هادئ ونبرة حازمة : 1...2...3...4...5...

تضج الساحة بالهمهمات وحفيف البزّات العسكرية السميكة ووقع الأحذية العسكرية على اسفلت الساحة ...نصطفّ ثلاثة أرتال متوازية ...نردد شعار الحزب الحاكم ...ثم ننطلق بأمر نعمان، الملازم القصير النحيف، ذو الوجه البيضوي والشعر الأصهب والشاربين الشقراوين المعقوفين في نهايتهما للأعلى كذَنَبِ فأر وقح... ندور حول الساحة جرياً ونحن نردّد بلهاث لا يكاد ينقطع: عاش الزعيم...عاش الزعيم ... بالروح... بالدم... نفدي الزعيم"...

يبلغ منا الجهد أقصاه، وتنتهي ساعة من الجري وسط غيمة كثيفة من الغبار المتصاعد من ضربات أحذيتنا العسكرية الثقيلة على المسار الترابي القريب من الساحة، تفوح رائحة العرق المتصبب من الأجساد المنهكة...ويزدحم اللهاث وتتناثر الحمحمات قبل أن يأتينا الأمر بالتوقف لننصرف في السادسة والنصف إلى مهاجعنا لتناول فطورٍ من قطعة حلوى (حلاوة) وبيضة وحبيبات من زيتون متخشب، وبعد أربعين دقيقة يخور الملازم نعمان بصوته المقزّز: اجتماع... اجتماع... بسرعة يا حيوانات... بسرعة...

ثمّ تبدأ الدروس العسكريّة المملّة المكرّرة لدرجة القرف (فكّ البارودة، تركيب البارودة، عيار الجفّ 7,62، ترمي رشّاً ودراكاً، المدى الأقصى 8000م، المدى المجدي 300م ...) ويتكرّر الدرس ويتكرّر حتّى الواحدة والنصف ظهراً، ننصرف للغداء...نترنح في مشيتنا عائدين للمهاجع...نخلع أحذيتنا العسكرية ونفترش الأرض استعداداً لتناول الطعام... نتمايل سكارى من رائحة الجوارب العفنة والأحذية الجلدية المتعرّقة وهي تنخر مركز الشم في أقصى الدماغ منّا....ثم ما يلبث أن يسيل لعابنا عندما يقبل الرفاق بقصعات الطعام الهرمة المتراقصة بين الأيدي... والتي غاص فيها على مر الأيام مئات الملاعق وفغرت فوقها مئات الأفواه الجائعة المقهورة وهي تلتقم الطعام... نتحلق جماعات حولها... نبحث عن قطعة صغيرة من الخيار في اللبن المخفوق لندفع به لقمة البرغل الجافّ، نغوص بملاعقنا في القصعة، نتسابق على قطعة صغيرة منه تطفو قليلاً، وقبل أن تغوص في اللبن ثانية يلتقطها أبو الجود بخفّة، نتضاحك، نتوقف قليلاً عن الطعام لنخرج قطعة حصىً تصطكّ بين أسناننا مصدرة صوتاً مقززّاً، نحمد الله، نرتاح قليلاً، ثمّ نعود لدرس الرياضة المسائيّ، ندور وندور حول الساحة حتّى غياب الشمس، ثمّ نعود منهكين قلقين من العقوبة الليليّة، وفي وقت متأخّر من الليل يخور الملازم نعمان فتهرب الأحلام والشخير ونستيقظ كقطط مرعوبة، نصطدم ببعضنا البعض ونحن نبحث عن أحذيتنا نصف نيام، لنلبّي دعوة الملازم نعمان بالسرعة القصوى، نتكدّس بين يديه في الساحة، فيصبّ علينا الماء البارد مع شتائمه المعتادة، ونعاود الدوران عراة حول الساحة إلا ممّا يستر عوراتنا، نعود قبيل الفجر بقليل إلى مهاجعنا لاهثين لنرتاح قليلاً، فتختلط رائحة العرق برائحة الجوارب النتنة ورائحة الأحذية العسكريّة الثقيلة التي اعتدنا

عليها، نتسامر قليلاً، تخفت الأصوات تدريجيّاً ثمّ نسابق الثواني لنغطّ في النوم قبل أن يعلو شخير الرفاق.
ألفت ذاك الروتين المقرف شيئاً فشيئاً إلاّ شيئين لم آلفهما: المواطن المستقر"ّصايل" والحرمان من الشاي الذي نسيت طعمه....وتغلبت على الخوف من العقوبة الليلية وحتى من سوط الملازم نعمان لكني لم استطع التغلب على خوفي من أن يُفرز صايل إلى الكتيبة التي سأُفرز إليها بعد دورة الأغرار تلك، كان ذلك يقلقني بشدّة، كنت أقول في نفسي: ماذا لو تمّ فرزه معي برفقة صاحبه الشرس عصام؟ ثمّ أستغفر الله وأحاول صرف هذا الخاطر عن مخيّلتي...فيتسلل إلى ثنايا عقلي الباطن ليتحول إلى حلم مفزع ينكد عليّ نومي الهادئ...أهب واقفاً عندما تؤلمني ضربة من رجل صايل الوسخة في خاصرتي ويرعبني صوته: "ابعد...ابعد يوال...أريد أن أنام"...
أستيقظ فزعاً ...أمسح وجهي ...أحمد الله أنه حلم ليس إلا...

****

يوم من أيام القهر

الساعة الواحدة ظهراً، مالت الشمس الحارقة قليلاً عن كبد السماء...كان للحر رائحة مميزة يشمّها المقهورون فحسب...بل لعلهم وحدهم هم وفي الحر بشكل خاص؛ من يبصر لون القهر ويتذوق طعمه ويشتمّ رائحته...
الحركة صاخبة في مركز التجمّع، والسيّارات العسكريّة تتقاطر لشحننا إلى قطعات عسكريّة شتّى لنكمل ستّة أشهر أخرى من التدريب على اختصاصات عسكريّة متنوّعة (دفاع جويّ، مدرّعات، هندسة، استطلاع، مشاة، سلاح الإشارة...). كان يوم الفرز مميّزاً إلى حدّ ما، لا درس رياضة ولا فكّ البارودة ولا تركيبها، ولا خوار نعمان الذي بدا هادئاً بعض الشيء ...
تناولنا فطورنا مع قليل جدّاً من الشتائم العابرة، وخيم على المكان ترقب وتوجّس...وخفتت الأصوات عندما ضجّت الساحة بهدير محركات سيارات "الزيل" الروسية الصنع ...وترجل منها مندوبوا القطع العسكرية المختلفة لسوق المفرزين إلى قطعاتهم الجديدة...
وقف نعمان بين يدي العقيد قائد مركز التجمع وحيّاه خاشعاً ثم استدار نحونا، ليتلو أسماءنا من لائحة طويلة في يده، بادئاً باسم القطعة العسكريّة، الاختصاص ثمّ أسماء المفرزين إليها. شنّفت الأسماع...وسكنت الحركات...ولم يبق إلا صوت نعمان يلعلع بالأسماء..
طرق سمعي: "لواء المشاة 23، قائد عربة جنود، ثائر صلاح عبد الحميد ..." رفعت يدي إلى أعلى بحركة رشيقة قائلاً: "نعم، حاضر" وانضممت سريعاً إلى مجموعة لواء المشاة 23"،ومضى نعمان في سرد أسماء المفرزين معي إلى نفس القطعة...

خفق قلبي فرحاً حين طرق سمعي: هشام عبد الله جبلي، طربت لسماع اسم أبي الجود مفرزاً معي إلى نفس اللواء، لكنّ القلق عاد يساورني وأنا أنتظر فرز صايل وعصام، لم يطل انتظاري كثيراً... وقع ما كنت أخشاه و ألِحُّ على الله في دعائي أن يصرفه عنّي، لقد تمّ فرز صايل وعصام إلى نفس اللواء الذي فرزت إليه أنا وأبو الجود... وعلينا أن نصبر على قذارته ستّة أشهر أخرى، أظلمت الدنيا في عيوني، أصابني الدوار وجثم على صدري همّ ثقيل...

قهر الرجال بادٍ على الوجوه التي لوّحتها شمس الخامس من آب، والخوف والقلق يسكن العيون الذليلة المتعبة. أخذت نفساً عميقاً وتبادلنا النظرات أنا وأبو الجود، اقترب منّا رفيقنا عبد الله مودّعاً فخنقتنا الدموع، تعانقنا بحرارة واعتصرنا الألم بشدّة، ثمّ عاد أدراجه ينتظر دوره في الفرز، كان مشهداً يشبه يوم الحشر إلى حدّ بعيد.

تحت أشعّة الشمس الحارقة انطلقنا سيراً على الأقدام شمالاً نحو لواء المشاة 23 الذي لا يبعد كثيراً عن مركز التجمع لنتمّ فيه دورتنا التدريبيّة، يتقدّمنا مقدّم عابس الوجه قصير القامة، غزير شحم الرقبة، منتفخ الكرش كحبلى في شهرها التاسع، تلمع صلعته المحمرّة تحت أشعّة الشمس فيتقاطر منها العرق بغزارة.

بين الحين والآخر ألتفت من سفح الجبل الذي نسير عليه صعوداً فيقع بصري على عبد الله رفيق دربي وقد تسمّر في مكانه يتبعنا ببصره الكليل ويمسح دموع القهر بين الحين والآخر...كان عبدالله شديد الحزن ذاك اليوم بقدر ما كان شديد الفرح يوم جمعتنا الأقدار في معسكر التجمع...كان يأسرك طيبة ويذهلك شهامة...متوسط الطول، قوي البنية، حاد النظرات تنبئك سمرة وجهه عن طيبة وعينيه عن عزيمة قوية...

انحدر بنا السفح نحو الجهة الأخرى من الجبل، ألقيت نظرتي الأخيرة على عبد الله، ظلّ يلوّح لنا بيده حتّى غيّبنا الوادي، فسرت حرقة في أضلعي حتّى لامست قلبي فعصرته بشدّة، ثمّ خرجت آهة مكتومة من صدري. ساد الصمت إلاّ من صوت اصطكاك الحجارة المتبعثرة تحت أقدامنا... علونا القمة فبانت لناظرنا أطراف العاصمة الجنوبية من البعيد كمتململٍ من طول رقاد... هبّت نسمة ساخنة قادمة من هناك خلتها آهة قهر من ليل تطاول على الربوع الحبيبة...أشرفنا على وادٍ قاحل تتناثر على أطرافه حفر متفرقة يُرجّح أنها كانت تستخدم كمخابئ تدريبية للدبابات في دروس التكتيك العسكري... هبطنا الوادي الأجرد نتصبب عرقاً وقد جف منا الريق وكلت الأقدام...بتنا نتمايل في مسيرنا تعباً حتى صار رتلنا العسكري مهلهلاً بطريقة مضحكة...نتخافت بيننا : متى نصل غايتنا لنرتاح قليلاً...؟يا هل ترى ما الذي تخبأه لنا نظرات المقدم سومر التي يحدجنا بها بين الحين والآخر؟...

طال بنا المسير في قاع الوادي ثمّ بدأنا نرتفع صعوداً نحو هضبة جبليّة شُقّ صدرها كمصطبة نصبت فوقها خيام عسكريّة، رحنا نقترب منها شيئاً فشيئاً، وبعد نصف ساعة من المسير وصلنا ساحة ترابيّة تحيط بها خيام عسكريّة مهلهلة فارغة، تتقدّمها غرفة اسمنتيّة صغيرة كانت مكتب المقدّم سومر قائد الدورة الذي كان يسوقنا أمامه.

وقف المقدّم سومر ونادى على خيمة بالقرب من مكتبه فخرج ثلاثة رقباء دخلوا المكتب خلفه برهة، ثمّ خرجوا تلوح في أيديهم قطع سوداء من كبل كهربائيّ بطول المتر وزيادة، هجم الثلاثة علينا دفعة واحدة ككلاب مسعورة بعواء غاضب اختلط فيه سباب وأوامر متناقضة تماماً: منبطحاً، جاثياً، رمَلاً، واقفا ..ً

لقد أشبعونا ضرباً، ونحن نموج بين منبطح وجاث وراكض وصارخ ألماً.

كان مشهداً مرعباً ومضحكاً في آن واحد.

بعد ساعة من التشتّت والرعب والاصطدام ببعضنا البعض انتظمنا في دائرة ندور بارتباك وهلع حول الساحة، وكلّما صادف مرورنا بمحاذاة أحد الرقباء كوانا بضربة من سوطه الناري بلا رحمة، فتزداد سرعتنا ونحن نتحسّس مكان الألم ونتلوى راكضين كثيرانٍ فزعة حتّى استنفد الرعب كل الجهد الكامن فينا وبلغ منّا التعب أقصاه .

أخيراً وبعد ساعة أخرى من الهياج والصراخ والشتم جاءنا الأمر بالتوقّف. راح يخفت صوت لهاثنا وأنيننا شيئاً فشيئاً.

اقترب منّا المقدّم سومر مبتسماً كثعلب وعلامات الرضى عمّا حلّ بنا بادية على وجهه... تعلّقت أبصارنا بفمه، ورحنا ننظر إليه بعينيّ الراجي المنكسر، وننتظر أوامره بقلق بالغ. برصانة متكلّفة وصوت هادئ نطق قائلاً: أنتم.. أنتم..

زاد قلقنا ورحنا نتساءل في سرّنا: نحن ماذا...؟.. نحن من يا ترى ؟

أردف قائلاً: أنتم، أنتم الآن بشرا ...ً

تنفسّنا الصعداء وحمدنا الله أن أصبحنا بشراً.

كادت تفلت مني ابتسامة وقلت في نفسي: وهل كنّا حيوانات أم شياطين يا سومر ؟...

تابع كلامه قائلاً: لا شكّ أنّكم جائعون، والآن ...بعد أن أصبحتم بشراً يحقّ لكم أن تأكلوا.

لم ننبس ببنت شفة، وساد الصمت برهة.

أدار وجهه نحو اليسار ومدّ يده مشيراً إلى الشرق قائلاً: هناك في أقصى اللواء، ذلك المبنى الكبير هو المطعم (ومدّ حرف الألف من اسم الإشارة "ذلك" طويلاً ليتناسب مع بعد المسافة التي تفصلنا عن المطعم)، وقع بصرنا على سهل طويل تتناثر عليه المهاجع العسكريّة والدبّابات الخربة ومكاتب الضبّاط في اللواء الذي غادر عناصره قبل شهر للرباط على الخطوط الأولى.

أردف قائلاً: "خلال ساعة واحدة فقط، أقول فقط، عليكم الذهاب لتناول العشاء والعودة حالاً ....والويل لمن يتأخّر."

صرخ سيادته: أفهمتم.!؟

أجبنا بصوت واحد: فهمنا سيّدي.

خار ثانية بصوت غليظ صارخاً: من المكان وباتجاه المطعم، انطلقوا، هيّا..

كانت كلمة "من المكان وباتجاه المطعم.." أشبه بصرير بابٍ حديديّ لسجن مخيف فتح للتوّ، وكانت كلمة "انطلقوا" صدى خافتاً لكلمة "حريّة" في مسامعنا رسمت بسمة "المواطن المستقرّ" المأسورة على الشفاه الجافّة ونحن ننطلق كعجول جياع اندفعت من زريبتها نحو معالفها.

كانت المسافة التي تفصلنا عن المطعم تقارب الثلاثة كيلومترات، قطعناها ركضاً وهرولة ومشياً ولم ينقطع لهاثنا إلاّ عندما تكدّسنا على باب المطعم الذي تفوح منه روائح من خليط عجيب: ...زيت... سمن... ديزل... قمامة متكدّسة خلف المبنى .
خرج مجنّد أسمر نحيف، قصير القامة حليق الرأس بيده رفش يتصاعد منه البخار ولاح لناظرنا قِدر ضخم جداً، تعلوه غييمات كثيفة من بخار تركت بقاياها على (الملعقة) الرفش الذي يحمله المجنّد تختلط برائحة البرغل. حدّق بعينين حمراوين ومسح شاربيه المتهدّلين ثمّ شعره الأشعث وعدّل من بزّته العسكريّة الوسخة.
ساد الصمت إلاّ من همهمات وهمسات من هنا وهناك.
:-من أنتم؟ قالها المجنّد مشيراً بالرفش نحو وجوهنا...
كدت أقول: نحن بشرٌ بشهادة المقدّم سومر، لولا أنّه عاجلنا بصرخة أخرى قائلاً:
قلت لكم من أنتم!؟
أجاب أبو الجود: نحن الدورة رقم 16 حضرة ال... ولم يدرِ ما يقول بعدها.
ردّ المجنّد بنبرة ساخرة: تشرّفنا يا أساتذة.
قلت: زادك الله شرفاً يا حضرة الـ ... (سكتُ ولم أدر ما أقول بعدها(....
وكزني أبو الجود بمرفقه هامساً في أذني: يا أخي لِمَ تثنِي عليه..!؟
قلت بصوت منخفض: لأنّ الرجل يحترمنا، ألم تسمع؟ إنّه يخاطبنا "يا أساتذة."
همس مرّة ثانية في أذني: كلمة "أستاذ" تعني في مصطلحهم "حمار."
فتحت فمي مندهشاً وقلت: ومن قال لك ذلك يا أستاذ؟
ضحك أبو الجود بخفة ولكزني ثانية في خاصرتي قائلاً: شكراً لك.
قلت: لم أقصد، لكن من قال لك أنّه يقصد ما تقول؟
قال بابتسامة خفيفة: لابواسيه، لابواسيه قال ذلك.
قلت: كأنّك تهزأ بي...؟ نعم ...كان لابوسيه يؤكّد دوماً على العداوة المتأصّلة بين الاستبداد والثقافة.
علا صوت المجنّد بنبرة عسكريّة قائلاً: انتبه... استعدّ... يا عسكريّ يا فهمان... ليس لدينا أوانٍ نصبّ فيها الطعام، على كلّ واحد منكم أن يبحث عن شيء... قطعة كرتون... بلاستيك... أيّ شيء لنصبّ له الطعام. أفهمتم؟ ...هيّا... لا وقت لديّ أضيّعه...كان صوته الرفيع أقرب لمواء قط عجوز...
تبعثرنا حول المطعم نبحث عن ذاك الأيّ شيء، وقع بصري على قطعة وسخة من بقايا صندوق كرتونيّ، التقطتها على عجل وعاجلتها بضربين من كفي لأنفض التراب عنها متوجّهاً نحو المطعم، مددت يدي بقطعة الكرتون فغرف المجنّد برفشه غرفة من البرغل وصبّها على صحني الكرتونيّ المسطح البالي، فانزلق الكثير منها على الأرض. بصوت كالمواء صرخ بي: هيا...انصرف ...فليتقدم الذي يليه...
استدرت سريعاً ومشيت نحو ظل شجرة بائسة سئمت الحياة فتهدّلت أغصانها عطشاً،ومالت خاشعة نحو اليسار قليلاً فخلتها تشكو القهر مثلنا...
سمّيت الله ومددت يدي متناولاً اللقمة الأولى فصعب عليّ مضغها، لقد كانت جافّة بما فيه الكفاية.

عدت ثانية إلى المطعم، وسط الزحام والتدافع وسألت المجنّد المنشغل مع رفاقي: ألا يوجد شيء من اللبن (الرايب ؟(
قال متبرّماً: أحضر إناء .ً
عدت ثانية أبحث عن إناء وسط أكوام من العلب المعدنيّة الفارغة حول المطعم، وقع بصري على علبة فول صدئة، التقطتها ورحت أنفخ فيها بقوّة لأزيل التراب عنها، ضربتها بيدي مرتين أو ثلاثة وأنا في طريقي إلى المطعم .
مددت يدي إلى المجنّد بالعلبة الفارغة، غرف لي غرفة من لبن ممدّد بالماء، أو قل ماءً ممدّد بشيء من اللبن. عدت إلى ظلّ الشجرة، أكلت بنهم شديد، فأنا لم أتناول شيئاً منذ السادسة صباحاً، لقد عضّني الجوع بلا رحمة، شعرت بنشوة لم أستطع تفسيرها حتى الآن ولدّة للبرغل الذي كنت أزهد فيه قبل خدمتي العسكريّة لم أعهدها، بل لم آكل طعاماً لذيذاً لدرجة مذهلة من قبل كتلك الوجبة، فيا للجوع! كم يغيّر حقائق الأشياء وطعمها إذا ما اقترن بالخوف والذلّ.
ما أن أنهيت طعامي متعجّلاً حتّى أقبل أبو الجود يحمل صحناً من صفيحة معدنية قديمة وجلس إلى جانبي .
التهمنا طعامنا على عجل، حمدنا الله، وقف أبو الجود وأشار برأسه أن هيّا نعود فقد أوشكت المدّة على الانتهاء.
كانت حركة الرفاق بطيئة جدّاً بالعودة، بدأ العدّ العكسيّ للوقت، صرخ صايل بصوت أجشّ: يا بني آدم، المتبقي سبع دقائق، والمسافة المتبقّية أكثر من كيلومتر، وسيادة المقدّم يسعده تأخّرنا، أفهمتم ما أعني!؟
بدأنا نهرول بتثاقل، ثمّ زادت سرعتنا شيئاً فشيئاً، علا صوت اللهاث وتصاعد الغبار خلفنا، وصلنا ساحة الخيام في اللحظات الأخيرة.
انتظمنا في صفّ متعرّج وسط همهمات وهمسات من هنا وهناك، ساد الصمت وتعلّقت الأنظار بالمقدّم الذي خرج من مكتبه برفقة رقبائه الجلّادين، نظر إلينا مليّاً ثمّ التفت إلى اليمين ومدّ يده مشيراً بأصبعه إلى مبنى في الوادي المقابل وقال: أترون ذلك المبنى؟ (ولم ينس أن يمدّ حرف الألف ثانية من كلمة "ذلك") إنّه مستودع اللواء، عليكم الآن الذهاب إليه لاستلام أسرّة نومكم وبقيّة مستلزماتكم، هيّا انطلقوا.
لم يتمّ المقدّم سومر كلامه حتّى انطلقنا ثانية نهرول من أعلى التبّة متثاقلي الرؤوس من أثر البرغل الذي انتفش في بطوننا قاصدين المستودع البعيد .
وصلنا بعد ما يقارب الساعة من الهرولة والمشي، كان بانتظارنا مجموعة من المجنّدين يتقدّمهم ضابط برتبة نقيب طويل القامة...شديد سمرة الوجه...أصلع الرأس حليق الشاربين واللحية، رأسه كرأس كديك رومي مزهوّ بنفسه... يضع يديه خلف ظهره، مباعداً بين ساقيه قليلاً... صرخ بنا على الفور أن انتظموا، وما أن انتظمنا حتّى راح المجنّدون يرمون إلينا بالفُرُش والوسائد والأغطية وقرب الماء المعدنية الفردية الفارغة والقصعات، ثمّ يصرخون بالمستلم طالبين منه إتاحة المكان للذي يليه، فيبتعد مرتبكاً وهو يحتضن بصعوبة حمل بعير من المتاع الوسخ الذي تزكم رائحته الأنوف.

انتهت عملية استلام الأمتعة بسرعة قياسيّة وقفلنا راجعين ببطء شديد نجرجر أرجلنا المثقلة حتّى وصلنا ساحة الخيام بعدما هدّنا التعب وتوارى قرص الشمس خلف التباب الغربيّة الساكنة، التي راحت تجرجر على سفوحها غطاءً رقيقاً من سواد الليل القادم...فثار في نفسي حزن دفين وتساءلت: ألا أيّها الليل الثقيل متى تنجلي عن ربوعنا؟ ....

استقبلنا الرقباء بالشتائم لتأخرنا، متوعّدين بالعقاب صباحاً، ثمّ طلبوا منّا أن نتوزّع على الخيام المضروبة حول ساحة التدريب. أمسكت يد أبي الجود واستمهلته قائلاً: يا أخي دعنا نرى في أيّ خيمة سيستقر "صايل " كي نبتعد عنه أقصى ما يمكننا...اختلط الرفاق وعلا اللغط وراح كلٌ يختار رفاق خيمته ثم انشغلوا بترتيب الفرش ومدّ الأغطية عليها وإصلاح الخيام المهلهلة وشدّ حبالها...

كنا أنا أبو الجود نرقب صايل حتّى اختار الخيمة رقم 14 فقرّرنا عندها اختيار الخيمة 6 في الطرف المقابل من الساحة. دخلنا الخيمة واحتلّ كلّ واحد منّا مكاناً انشغل في تسويته من الحجارة الصغيرة ليضع فراشه عليه، كان فراش أبي الجود عن يميني يليه فراش أسعد الحوراني ثم فراش حسن فلاح، وعن يساري فراش فيصل السايرالشابّ البدويّ الهادئ...ثم فراش عبد الهادي النجار يليه فراش حسام حمدون.

استلقيت على فراشي وأخذت نفساً عميقاً وحمدت الله على أنّ خيمتنا بعيدة عن خيمة صايل...ومسألة اللقاء به عرضيّة إن حصلت...وأنا كغيري عليّ أن احتمل بذاءته وسماجته ما أمكن.

غفوت تعباً مذ لامس جسمي الفراش وكدت أغرق في نوم عميق لولا أني أحسست بقدم تلكزني في خاصرتي وصوت أجشّ يناديني: "هيه، أنت يا رفيق، هيّا ابتعد قليلاً، أبعد فراشك يا عسكريّ، يا محترم". فتحت عيوني متبرّماً لأرى من هذا الذي يلكزني بفضاضة...هالني ما وقعت عليه عيني... اعتدلت كالملدوغ، يا إلهي إنّه صايل!

قلت متمثّلاً الهدوء: ماذا تريد يا سيّد صايل؟

قال بنبرة حادّة: أبعد فراشك قليلاً، لقد أتيت مكان فيصل الذي كان إلى جوارك.

قلت باستغراب: وفيصل ؟!

قال: تبادلنا الأماكن... لقد ذهب إلى الخيمة 14 لينضمّ إلى رفاقه.

تنهّدت بعمق ...مسحت وجهي بكفي اليمنى ...حدقت به قليلاً...فنظر إلى بزاوية حادة مقوساً شفته العليا إلى الأسفل وقال: كأن الأمر لم يعجبك يا رفيق !!....

لم أرد عليه وقمت كاتماً تبرّمي وضيقي وأنا أتمتم: حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل، ورحت أبعد فراشي قليلاً لأفسح له مكاناً أوسع.

صرخ بي: أراك تتمتم...هل هناك شيء يا؟...

نظرت إليه قليلاً ولم أنبس ببنت شفة...

أحسست بضيق شديد، خرجت من الخيمة وتركته يرتّب فراشه. لحق بي أبو الجود، مشينا قليلاً ولم يكلّم أحدنا الآخر، التفت إليّ أبو الجود قائلاً: "لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلاّ كان خيراً له". هدّأت نفسي قليلاً وقرّرت التعامل مع صايل كجار له حقّ

الجيرة عليّ، قلت في نفسي ألم يوصِ الله تعالى بالجار الجنب والصاحب بالجنب، لا أدري لم أحسست بشفقة نحوه.
مشيت قليلاً ثم عدت إلى فراشي بهدوء واستلقيت عليه متجاهلاً شخير صايل الذي غط في نوم عميق... غلبني النوم أنا أيضاً ولم أستيقظ إلاّ على صوت الرقيب فياض ينادي للاجتماع لدرس الرياضة.
مرّت الأيّام ولم أذق طعاماً ولم أشرب شراباً إلاّ وشاركت صايل به، كنت أقابل عبوسه بالابتسام، وبذاءته بالتجاهل، وفجوره بالتبرّم الصامت.
كنّا نصلّي أنا وأبو الجود خفية عن أعين الرقباء المدرّبين، وكان صايل يرمقنا بصمت، قليلاً ما نتجاذب أطراف الحديث معه، لكنّنا نعامله باحترام، نتجاهل إهماله نغضّ الطرف عن استئثاره بالفاكهة القليلة...نبدأه بالسلام...نوقظه صباحاً بلطف...
مرت عشرة أيام وبدا التغيّر واضحاً في سلوكه لدرجة أنّه كان يعتذر متعلّلاً بمضايقة الرفاق إن شتم أحدهم فأهدّئه وأترفّق به...فيستجيب لرجائي ويقصر من فجوره كثيراً.

****

عمر الخيّام يرتجف برداً

مرّت أربعة أشهر على وجودنا في معسكر التدريب، واعتدنا على البرنامج اليوميّ وتحسّنت العلاقة بيننا وبين الرقباء كثيراً بعد انتقال المقدّم سومر من قيادة المعسكر التدريبيّ إلى قطعة عسكريّة أخرى وحلّ مكانه المقدم سمعان كقائد جديد. كان سمعان متوسط القامة حنطي البشرة ...أشيب الصدغين...عريض المنكبين حاد النظرات...بيضوي الوجه...منضبط المظهر العسكري لا يكاد يرى إلا وسيكارة "المالبورو"على زاوية فمه اليسرى ... أقلّ قسوة ممّن سبقه، ولم يكن يعكّر يومنا وليلنا إلاّ نائبه النقيب الشرس آصف ،الذي قدِم إلى معسكرنا كضابط تدريب، مُرسلاً من قيادة الفرقة. قصير سمين ذو وجه تنوري أحمر، تفوح من فمه رائحة الويسكي أغلب الأحيان إن نطق...يستطيب شتم الذات الألهية لأتفه الأسباب... كان لا يخيفه شيء أكثر من القطط والكلاب الضالّة التي تتردّد بين الحين والآخر إلى المعسكر، وكان الرفاق ينتقمون من شراسته خفية برمي مخلفات الطعام قريباً من خيمته لإقلاقه ليلاً. وفي ليلة شديدة البرد والظلمة كان الزمهرير يلسع أجسادنا العارية فنرتجف برداً أمام خيمة النقيب آصف بعدما اكتشف أمرنا .
رذاذ من الثلج يتناثر على أجسادنا المرتعشة، نتراقص برداً وتصطكّ أسناننا بقوّة كلّما هبّت رياح الصقيع القادمة من الجبال الغربيّة. راح يعلو همس التضرّع إلى الله أن يرسل إلينا من ينقذنا من إصرار النقيب آصف على وقوفنا بالعراء حتّى الصباح.
تلتصق أجسادنا ببعضها البعض أكثر فأكثر بغير إرادة منّا، نستجدي دفئاً كاذباً من الأنفاس المرتجفة والأجساد المتلاصقة، بينما يتسلّل صوت أمّ كلثوم من خيمة سيادة

النقيب الدافئة: "أفق خفيف الظلّ هذا السحر.." وتعيد أمّ كلثوم وتكرّر رباعيّات عمر الخيّام، ويسترق النقيب آصف النظر إلينا من خيمته بين الحين والآخر وهو يرتشف قليلاً من الويسكي من زجاجة" الوايت هورس "في يده مدندنا" :سَمعت صوتاً هاتفاً في السّحر...أفق خفيفَ الظّلّ هذا السّحَر...نادى دع النوم وناغ الوتر... فما أطَال النّوم عمراً ولا قصّر في الأعمارِ طول السهَر.." فتهفو قلوبنا إلى النوم والدفء ونلعن في سرّنا السهر والوتر وأمّ كلثوم وعمر الخيّام وأصفهان ونيسابور...

لاح ضوء سيّارة قادمة من أقصى اللواء، علا همس التضرّع إلى الله بيننا حتّى بات مسموعاً بوضوح، وكان صوت صايل الأجشّ واضحاً وهو يردّد خلف أبي الجود استغاثات بالله وبرسوله وبالأولياء الصالحين، وينفرد صوته مردّداً: "يا ربّ ارحمنا إكراماً لرسولك وللرفاعيّ والجيلانيّ والدسوقي والصياد، يا ربّ أنا أعرف أنّك ساخط عليّ، لكنّي.. لكنّي أحبّك" ويختنق صوته بشهقات تعبث بها الريح الصافرة...وإذا ما سكنت الريح لحظة عاد صوت وحْوحَة المرتجفين برداً واصطكاك أسنانهم ليبعث تيار قشعريرة جديد يسري من أخمص القدم حتى قمة الرأس القنفذية المظهر من البرد ...

تعلّقت أعيننا بضوء السيّارة الذي راح يقترب، وعلا صوت صايل" :يا الله دخيلك، يا محمّد دخيلك. كان رفيقنا غسّان المسيحيّ يردّد خلفه: "يا الله دخيلك، يا محمّد دخيلك" التفت صايل فجأة إلى غسّان قائلاً: "كأنّك أسلمت يا بني آدم" ضحكنا بشفاه مرتجفة كحصان عجوز .

اقترب الضوء أكثر وأكثر حتّى وصل ساحة التدريب خلفنا، ترجّل الملازم أوّل مُحسن من سيّارة الجيب مذهولاً بعد انكشاف الكتلة البشرية العارية على ضوء سيارته، اندفعنا نحوه متوسّلين راجين أن يخلّصنا من النقيب آصف...

أخذَتْ الملازم محسن الشفقة علينا صرخ بنا: هيا انصرفوا إلى خيامكم.

لم نتحرك من أمكنتنا...كرر ثانية بصوت أعلى: يا بهائم ! نفذوا الأمر العسكري حالاً...هيا انقلعوا إلى خيامكم...

أشرنا بأصابع ترتجف برداً وخوفاً نحو خيمة النقيب آصف ففهم قصدنا...دخل خيمة النقيب المذكور على الفور وعلا صياحهم قليلاً ثمّ خرج بعدها آصف وصرخ بنا ثملاً بلسان متثاقل:"ها... الليلة ربّكم خلّصكم يا أولاد الـ... هيّا انصرفوا ."

كانت الساحة خالية في دقائق معدودة إلاّ من عواء الريح الغاضبة المتلاعبة بصوت أم كلثوم وموسيقا السنباطي ...

كانت تلك الليلة الباردة فارقة في العلاقة بيني وبين صايل الذي راح يصلّي أحياناً كلّما سنحت له الفرصة، وترك السباب إلاّ في الحالات التي تستفزّه جدّاً، وكان يتحاشى سبّ الذات الإلهيّة في خصامه، لكنّ شراسته لم تتغيّر في الخصام.

أبو الجود طيّب القلب...جميل المحيا...مستدير الوجه قوي البنية ... سريع الغضب سريع الرضى، سريع البديهة لكنه لا يفرّق كثيراً بين الجد والمزاح ... ملتزم دينياً، إلتزاماً صوفياً شديداً، لكنه يؤكد على أن هناك فرق بين التصوف الفلسفي والتصوف التزكوي ، فهو يتهم الصنف الأول بأنه مطية التشيع والإلحاد ويتهم أعلامه أمثال (الحلاج والسهروردي) بأنهم هم من أدخلوا فيروسات العقائد الشركية الفارسية القديمة، كفكرة الإتحاد والحلول إلى التصوف فأفسدوه.ويشيد بالصنف الثاني ويعتبره الطريق لبلوغ مرتبة الإحسان، ويجلّ أعلامه (أمثال الجيلاني والرفاعي) وعلينا أن نسير على دربهم بالدعوة إلى الله، ولهذا سُرّ أبو الجود كثيراً بسلوك صايل الجديد ومرّت الأيّام وبات يتقرّب منه فوعظه مرّة موعظة رقيقة وذكّره باستغاثاته ليلة البرد الشديدة ونصحه بالمواظبة على الصلاة حتى بدا على وجه صايل التأثر، لم أكن محبّذاً تصرّف أبي الجود ذاك خوفاً من اتهامه بالدعوة إلى الله وخروجه عما هو محظور ضمناً في نظامنا العسكري، أقصد الحديث في السياسة أو الدين، لكنّي آثرت الصمت. قال أبو الجود في معرض نصحه مرغّباً صايل :يا صايل كلّ صلاة تؤدّيها لله لك عندي هديّة. أجابه صايل على الفور: وما هي؟ ردّ أبو الجود قائلاً: كأس حليب بالقهوة، وأضاف: كما تعلم أنا أشرب القهوة السائلة المعلّبة مع الحليب المجفّف، لأنّ أخي الذي يعمل شرطيّاً في العاصمة يأتيني بهما كلّ أسبوع. ردّ عليه صايل قائلاً: نعم...أعرف ولكن من يكفل لي ذلك؟

فكّر أبو الجود قليلاً وأشار إليّ قائلاً: هذا الرجل، ثائر يكفلني..

قلت بصوت متردد: أنا ...أنا من يكفل؟

قال أبو الجود: ومن غيرك؟ نعم أنت...

هممت بالكلام فقاطعني صايل قائلاً: وأنا قبلت بكفالتك يا ثائر...

قام من فوره فتوضّأ ثمّ صلّى العشاء، وما أن انتهى حتّى أعدّ له أبو الجود كأساً من القهوة بالحليب كما وعده. اتكأ صايل على وسادته وراح يحتسي القهوة مسروراً وهو يقول: ليت الصلاة فرضت عشرة أوقات يوميّاً بدلاً من خمسة...

ضحك الرفاق لكلامه...واقترحوا عليه أن يصلّي النوافل مقابل نصف كأس من القهوة عن كلّ نافلة...ساد جوّ من المرح علينا...وأمضينا ليلة جميلة من ليالي الشتاء العسكري .ّ

استمرّ الحال على ذلك، وواظب صايل على صلاته ووفى أبو الجود بشرطه إلى أن جاء يوم عدنا فيه منهكين من تمرين عسكريّ شاقّ وكان الصقيع يلسع وجوهنا فتنكمش وتقشعر...وينخر عظامنا فنتقازم ونتقازم... فتكاسل صايل ولم يصلّ فرض العشاء، فقد غلبه النوم ولم يلق بالاً لتحذير أبي الجود من حرمانه ممّا اتّفقا عليه .

أعدّ أبو الجود القهوة بالحليب في صباح اليوم التالي وراح يرتشف من الكأس متجاهلاً صايل الذي راح يتململ وقد سال لعابه. قال صايل :هيّا أعطني حصّتي ممّا تشرب، هزّ أبو الجود رأسه رافضا ً

علا الجدل والخصام بينهما وراح صايل يصرخ بصوت عال: يا أخي، شرطك باطل، لقد كنت متعباً، والصلاة لربّي ليست لك.
أصرّ أبو الجود على موقفه وتطوّر الأمر لدرجة الصدام، فداخلني خوف من انكشاف أمر الاتفاق المبرم بينهما فيتعرّض حينئذ أبو الجود للمساءلة والعقوبة، فالصلاة شبه ممنوعة كما أفهمنا المقدّم سومر مسبقاً، تلميحاً لا تصريحاً.
صرخت بالاثنين: كفاكما، الأمر يحتاج لحَكَم يقضي بالأمر. ساد الصمت قليلاً وأردفت قائلاً: عليكما أن تختارا حكماً يقضي بينكما في الحال.
نظر إليّ أبو الجود ثمّ قال: أنا أرتضيك أنت حكماً بيننا، فوافقه صايل على اختياره على الفور.
قلت بهدوء: اجلسا أمامي.
جلس الاثنان أمامي، طلبت من باقي الرفاق أن يقتربوا منّا فأحاطوا بالمجلس الذي تصدّرته واضعاً أمامي صندوقاً خشبيّاً صغيراً، ضربت بملعقة إلى جانبي على ظهر ذاك الصندوق المقلوب فصرخ رفيقنا حسن: محكمة.
قلت برزانة القاضي: أسمعني حجّتك يا صايل.
قال: يا رفيق، قاطعته بنبرة حادّة صارخاً: قل يا سيادة القاضي.
تبسّم قائلاً: يا سيادة القاضي! أليست الصلاة لله؟ والله عفوّ غفور؟ هززت رأسي أن أكمل ...تابع قائلاً: أنت تعرف تفاصيل الاتفاق بيني وبين الرجل...صحيح أنّي قصّرت بصلاة العشاء ليلة البارحة، لكنّي صلّيت الفجر لهذا اليوم وأنا لا أطالب بحصة البارحة من الحليب والقهوة بل بحصّتي لهذا اليوم.
التفتُّ إلى أبي الجود قائلاً: ما ردّك على خصمك يا هشام؟
قال مقطّباً جبينه: أنا اشترطت عليه ألاّ يقطع وقت صلاة.
قاطعه صايل على الفور قائلاً: أنت تكذب.
علا الصراخ وضحك الرفاق مرّة ثانية فضربت بالملعقة بقوّة على الصندوق الخشبيّ الصغير فصرخ حسن: محكمة!
كتم الحضور ضحكتهم وقلت: سأنطق بالحكم الآن فالقضيّة واضحة، لكنّي أطلب من باقي الرفاق تنفيذ حكمي ولو بالقوّة، أتقبلون بذلك؟
هزّ الجميع رؤوسهم بالموافقة.
قلت: أحْكُمُ لصايل فهو مُحقّ في ادّعائه.
انتفض أبو الجود في وجهي صارخاً: هذا ظلم، أنا لا أقبل، ولن يذوق الحليب ولا القهوة مطلقاً.
قلت موجّهاً كلامي لرفاق الخيمة: أمسكوه حالاً وانتزعوا منه حصّة صايل فوراً.
انقض الرفاق على أبي الجود وقيّدوه ضاحكين ثمّ انتزعوا منه علبة القهوة السائلة وصبّوا منها كأساً ثمّ أضافوا له قليلاً من الحليب الجافّ وسلّموه لصايل.
اتّكأ صايل على وسادته وراح يرتشف من كأسه مردّداً: "فلتحي العدالة، فلتحي العدالة، عاش قاضينا.." وعلت موجة من الضحك وسط تذمّر أبي الجود وتمتمته.
انتهى الخصام بالمزاح والضحك لكنّ أبا الجود غضب منّي كثيراً بعدها وامتنع عن الحديث معي أيّاماً، بل لم يعد يردّ عليّ السلام إلى أن شرحت له حيثيّات حكمي وأنّي

لو لم أتدخّل بالوقت لمناسب وبالطريقة الكوميديّة اللطيفة لتطوّر الأمر بينهما ووقعنا في مشكلة يصعب حلّها، فرضي بعدها ولم يعد يمنع صايل من نصيبه من الحليب بالقهوة، غاضّاً الطرف عن تقصيره في كثير من الأحيان.

عندما يتحول المقهور إلى قاهر

كان صايل يستمدّ شراسته من طبيعة قبيلته ذات الشوكة المعروفة بقسوتها، وكان أبناء مدينته -الذين تجاوز عددهم الثلاثين من زملاء معسكرنا- يحسبون له ألف حساب إذا غضب، يُعرف ذلك من تقطيب حاجبيه ووقفته المعروفة واستفتاحيته المكرورة: " ولاااك...أنا أوسخ من مجاري هالبلد...وأحقر من كلب أم طراد..." ثم يكمل ما يريد قوله مطعّماً بشتائم سوقية لمن يخالفه.... وكانت تلك ميزة أحسنت استغلالها في منع تعدّيهم على حقوق الضعفاء من زملائنا، لكنّي لم أدرِ لِمَ لمْ يستجب لطلبي المتكرّر أن يردع هاني عن ظلمه لزميله أحمد في الخيمة الثالثة. كان هاني جلداً قوياً مفتول العضلات، كثير التباهي بأنّه أمين حلقة في الحزب الحاكم، وكان شرهاً فوضوياً لدرجة مستفزّة، لا يلقي بالاً لخصوصيّة زملائه، وخاصّة أحمد، فيستخدم هاني أغراضه الشخصيّة دون إذن منه، يمشّط بمشطه الخاصّ، يشرب بكأسه حتّى أنّه يستخدم وسادته في النوم، وكان أحمد ضعيف البنية مسالماً استغلّ هاني ضعفه كثيراً فمارس عليه القهر والإذلال، شكا لي أحمد كثيراً وألحّ عليّ أن أستعين بصايل لردع هاني، ولمّا لم يستجب لي -هذا الأخير- حاولت نصح هاني كثيراً لدرجة بات يتضايق منّي بل يصدّني بفظاظة فأتحاشى الصدام معه وألتزم الصمت.

وذات يوم خرج أحمد من خيمته باكياً فقد صفعه هاني لسبب تافه لا أذكره، مدّ أحمد يديه داعياً وقال: "اللهمّ إنّي مغلوب فانتصر، اللهم أذلّ هاني بما يعتزّ به." وقع في نفسي أنّ دعاءه طرق أبواب السماء السابعة، وبتّ أنتظر عقاب الله لهاني.

وفي يوم الأحد بعد الغداء كان موعد درس التوجيه السياسيّ الذي يلقيه علينا المقدّم سمعان بنفسه، جلسنا في الساحة متحلّقين حول المقدّم على هيئة صندوق مفتوح وكأنّ على رؤوسنا الطير خوفاً من أن يغلب أحدنا النوم من السأم .

راح المقدم سمعان يلقي على أسماعنا ديباجة مطوّلة معتادة من المديح والتعظيم والثناء على سيادة الزعيم وصموده العظيم في وجه الرجعيّة والاستعمار، وكان هاني -خصم أحمد- يجلس قريباً جدّاً من المقدّم سمعان الذي استرسل شارحاً الإصلاحات العظيمة والفتح المبين الذي جاء به الزعيم...وأنه لولاه لتخطّفنا الطير وتناهشتنا السباع...وأنه ...وأنه... وما أن نطق المقدّم سمعان باسم الزعيم ثانية حتّى اعتدل هاني في جلسته ليشعل المكان تصفيقاً وهتافاً كعادته، لكنّ بطنه الممتلئة بغازات البرغل خانته فخرج منه صوت مسموع تبعته رائحة غاز كريهة، كتمنا ضحكاتنا

بصعوبة لولا زميلنا أيمن الدمث الذي انفجر ضاحكاً فتبعته على الفور عاصفة قويّة من الضحك.
لم تجد تهديدات المقدّم سمعان حيالها شيئاً، فما كان من المقدّم إلاّ أن التفت إلى هاني صارخاً به: "قم يا غبيّ، هيّا اذهب إلى دورة المياه حالاً" ثمّ التفت إلينا متوعّداً وصرخ بنبرة حادّة: "هيّا انصرفوا إلى خيامكم يا كلاب، وانتظروا العقوبة الليليّة اليوم ."
انصرف الجميع متمايلين من الضحك إلاّ صايل الذي وقع بصره على هاني مقبلاً من دورة المياه. اقترب منه صايل مكفهرّ الوجه وفاجأه ببصقة على وجهه ثمّ أتبعها بقوله: نكّست رؤوسنا يا نذل، ألم تضبط نفسك حتّى يتجاوز المقّدم سمعان اسم سيادة الزعيم."
خفض هاني رأسه متمتماً بِذُلّ:"والله غصباً عنّي، لا أدري كيف حصل ذلك."
وفي المساء ذهب أحمد خلسة إلى إحدى ضواحي العاصمة الجنوبيّة وعاد بطبق من الحلوى، وطاف على الخيام جميعها فرحاً يوزّع الحلوى على الرفاق المتضاحكين، الذين راحوا يباركون له " صاروخ هاني " متندرين. وانتهت مظلوميّة أحمد ولم يُذكر أن هاني اعتدى على أحد بعدها.

سنوحي وإخناتون

"نواجه العدوّ الصهيونيّ ومن خلفه الإمبرياليّة العالميّة وقوى الاستعمار، ونستعدّ لاستعادة أرضنا المغتصبة..."، بهذه الكلمات كان يهدر محاضرنا في التوجيه المعنويّ المقدّم فريد الذي يزورنا كلّ أسبوع لإلقاء محاضرته والذي كان يسمّيه أبو الجود "المقدّم فريد عصره" وذلك لنبرته الخطابيّة ولجدّيّته المفرطة.

خالطنا مزيج من التعب والسأم بعث في أنفسنا شعوراً بالغثيان من كثرة ما طرق أسماعنا هذا الكلام، فكما كان يقول أبو الجود: "لو ذكرنا الله منذ الصغر كذكرنا للزعيم لدخلنا الجنّة من أوسع أبوابها". انشغل المقدم فريد عصره بقدوم المقدم سمعان وأطال الوقوف معه ومنحنا ذلك فرصة للأحاديث الجانبية ...قال أبو الجود: يا أخي! عجباً لهاني إنه مؤمن بكل ما يقوله المقدم فريد عن الزعيم...مع أن الزعيم هو من هجّره من بيته ودمّر مدينته ذات يوم وأعتقل أباه في السجن الصحراوي سيء الصيت حتى قضى تحت التعذيب ...سكت قليلاً ثم قال: ألا ترى معي أن الأمر محير يا ثائر...؟. حدقت به طويلاً ولم أجب...نظر إلي ثانية وقال ببسمة استفزازية: لعل صاحبك لابواسيه قال عن ذلك شيئاً...

تبسمت بخفة وقلت: لا...لم يقل لابوسيه عن ذلك شيئاً ...ولكنّ هاني ذكرني بقصة سنوحي وإخناتون...

ضرب أبو الجود بكفه على ركبتي بخفة وقال ضاحكاً: ومن هذا سنوحي وأخناتون...هل هما بطلا فلم كرتوني على نمط زورو والأشرار السبعة...؟

قلت :لا، لكن سنوحي طبيب الفرعون" أمفسيس" الخاص، أما أخناتون فهو رجل ثري من رعايا ذلك الفرعون .
:-وما علاقتهم بهاني؟...
:-مهلاً يا صاحبي...قل ما علاقتهم بفرعون أولا؟...ً
:-طيب... ما علاقتهم بفرعون أولاً ثم ما علاقتهم بهاني ثانيا؟...ً
:-الإنسان- يا صاحبي- جوهر لم يتغير فهو..هو...سواء أكان ذلك الإنسان فرعوناً سمي زعيماً ثورياً ركب الرقاب قهراً في القرن العشرين...أم أفمفسيساً طغى وتجبر في القرن الحادي عشر قبل الميلاد...
أخذ أبو الجود نفساً عميقاً واعتدل في جلسته ثم قال:يا أخي!أرجوك بلا مقدمات ...هات...قل لي ما علاقة ذلك بهاني...؟ هززت رأسي مرتين ثم قلت: يا أبا الجود!
كتب سنوحي في مذكراته الخاصة على ورق البردي أنه كان يمشي في شارع من شوارع مصر وإذ بالرجل الشريف الثري ‘‘أخناتون ملقى على الأرض مضرجاً بدمائه وقد قطعت يداه ورجلاه من خلاف وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت، فحمله إلى دار المرضى وجاهد جهاداً عظيماً لإنقاذه من الموت وبعد شهرين أفاق من غيبوبته وقصّ على سنوحي قصته المحزنة قائلاً:ً
لقد أمرني الفرعون ‘‘أمفسيس’’ أن أتنازل له عن كل شبر أرض أملكه وأن أهبه أزواجي وعبيدي وكل ما أملك، فاستجبت لما أراد بشرط أن يترك لي داري التي أسكن فيها ومعشار ما أملكه من الذهب والفضة لأستعين به فاستثقل فرعون هذا الشرط واستولى على كل ما كان عندي ثم أمر بأن يفعل بي تلك الأفاعيل الشنيعة لأكون عبرة لمن يخالف أوامر الفرعون (أمفسيس.(
جحظت عيني أبو الجود وقال: يا للمجرم...ثم ماذا؟...
قلت: أكمل سنوحي قائلاً:ً
ودارت الأيام وأخناتون المسكين يعاني الفقر والحرمان وكل أمله في هذه الدنيا هو القصاص من فرعون. ومات فرعون وحضرتُ مراسم الوفاة بصفتي كبير الأطباء فكان الكهنة يلقون خطب الوداع مطرين الراحل العظيم وكانوا يقولون: (يا شعب مصر لقد فقدت الأرض والسماء قلباً كبيراً كان يحب مصر وما فيها من إنسان وحيوان، كان للأيتام أباً وللفقراء عوناً وللشعب أخا ...ً
يضيف سنوحي: "...وبينما كنت أصغي إلى كلام الكهنة ودجلهم في القول، وبينما كانت الجماهير المحتشدة تجهش بالبكاء سمعت صوت رجل يبكي كما تبكي الثكلى، ويردّد عبارات غير مفهومة فنظرت ملياً وإذ صاحب البكاء هو (أخناتون) المعوق العاجز الذي كان مشدوداً على ظهر حمار، وأسرعت إليه لأهدئه وكل ظني أنه يبكي

سروراً لوفاة ظالمه ولكن ‘‘أخناتون’’ خيّب آمالي، عندما وقع نظره عليّ راح يصرخ عالياً: ’’ يا سنوحي.. لم أكن أعلم أن الفرعون ‘‘أمفسيس’’ كان عادلاً باراً بشعبه إلى هذه المرتبة العظيمة إلا بعد أن سمعت ما قاله كهنتنا فيه وها أنا أبكي يا سنوحي لأنني حملت في قلبي حقداً على هذا الإله العظيم."

تنهد أبو الجود قائلاً: بالتأكيد كان المقدم فريد أحد الكهنة...

قلت: فريد رجل مسكين...لو رآه سنوحي لبكاه أيضاً، لكن الكهنة والسدنة أمثال الشيخ س...والشيخ أ...والشيخ ع...هم من يجعلون من الفرعون رباً ومن المجرم نبياً...أليسوا هم من أقنع هاني وأمثاله بأن الزعيم كان محقاً في كل ما فعل به وبأهله...

تبسم أبو الجود وهزّ رأسه قائلاً : لكن يا أخي حماس هاني وتصفيقه الشديدين بين الحين والآخر ضروري لنا، فلولاه لغلبتنا إغفاءة قد تسبّب لنا عقوبة أليمة، بل قد تُفسَّر استخفافاً بالزعيم نفسه.

سكت قليلاً ثم همس في أذني: "أصحيح أنّ الزعيم باع أرضنا للعدوّ...

قلت: لم يعد ذاك خافياً على أحد.

تبسم أبو الجود ابتسامة ماكرة وقال: إن كان ذلك صحيحاً فكيف يتراجع في بيعه يا أخي!... والله عيب، على الرجل أن يكون عند كلمته".

همست: "يا أخي الرجل تراجع الآن، لعلّهم أكلوا عليه باقي الثمن، ولعلّهم أقالوه بيعته، مالك أنت؟!".

انصرف المقدم سمعان والتفت فريد عصره نحونا... فكتمنا ضحكتنا التي تحولت لابتسامة مقهورة كاد يلحظها المقدم المذكور عندما استأنف كلامه قائلاً: إن زعيمنا هو أمل الأمة... وبطل عزّ نظيره...إنه قائدنا إلى الأبد...

علت موجة تصفيق أطلقها هاني فأطلقنا ضحكتنا المكتومة لتضيع وسط هتافات رحنا نردّدها خلفه.

فشلت محاولات المقدّم فريد عصره في إيقافنا، ولمّا صرخ بنا أن اصمتوا. قام أبو الجود قائلاً: "اعذرنا يا سيادة المقدّم، نحن لا نتمالك أنفسنا عندما يذكر اسم الزعيم أمامنا".

صمت المقدّم فريد مكرهاً حتّى انتهينا من تصفيق طويل، فأكمل حديثه قائلاً: "يا أبنائي أنتم حماة الوطن، أنتم جنود الزعيم، إنّه فخور بكم.."، ثمّ وقف منصرفاً فأدّينا التحيّة العسكريّة له وقفلنا عائدين إلى خيامنا، وفي الطريق أمسكت بيد أبي الجود وقلت: يا أخي أنت فنّان بالخروج من المآزق، لولا مزاودتك على "فريد عصره" لجمدنا من البرد.

ضحك أبو الجود وقال: هيّا بنا نتسلّل من المعسكر لنذهب إلى بيت أخي في العاصمة لنحضر مدفأة الكاز التي حدّثتك عنها.

- : لكنّ المدفأة هنا ممنوعة بشدّة.
- : لا عليك سنخفيها عن الأعين ونوقدها في الليل فقط.
- : وصايل؟
- : سيكتم عنّا لأنّه سيشعر بنعمة الدفء، فضلاً عن الشاي الذي سنحضّره عليها، فهو مغرم بالشاي مثلك.
- : والرّفاق؟
- : سيكفينا شرّهم صايل.
- : خيراً، هيّا بنا إذاً.

سرقة وطن

تسلّلنا بخفّة من خلف الساتر الترابيّ وهبطنا الوادي الممتدّ حتّى سكّة القطار، هرولنا طويلاً حتى ابتعدنا عن حدود اللواء، توقّفنا عن الهرولة بعدها ورحنا نمشي ونستردّ أنفاسنا شيئاً فشيئاً، قصدنا موقف الحافلة التي ستقلنا إلى العاصمة ...كان أبو الجود غارقاً في التفكير...التفت إليّ بعدها وقال: ماذا تقول في محاضرة المقدّم فريد.

قلت: والله يا أخي كنت خلال المحاضرة أتذكّر قول القائل: "عندما يمسك بالقلم جاهل وبالبندقيّة مجرم وبالسلطة خائن يتحول الوطن إلى غابة لا تصلح لحياة البشر".

هزّ أبو الجود رأسه وهمّ أن يقول شيئاً لكنّ الحافلة القاصدة مركز العاصمة وصلت الموقف، فركبنا على عجل.

كانت الحافلة ملئى بالعمال المتعبين العائدين إلى بيوتهم من المعامل المتناثرة على أطراف العاصمة الجنوبية، يحملون معهم أحلام المساء والأمل بادٍ على الوجوه المكدودة...تتوقف الحافلة بين الحين والآخر فيترجل منها أناس ويصعد آخرون ثم تتابع سيرها تتهادى إلى قلب العاصمة التي تضج بالزحام والحركة...

وصلنا بيت سامر شقيق أبي الجود عند المساء، رحّب بنا الرجل كثيراً، أعدّ لنا عشاءً خفيفاً وشربنا الشاي بعدها...تجاذبنا أطراف الحديث قليلاً ...كان سامر رجلاً دمثاً كريماً صاحب نكتة حاضرة...طلب منه أبو الجود مدفأة الكاز فرد قائلاً على الفور: لا حاجة لكم بها يكفيكم دفء الزعيم وحنانه...

رد أبو الجود قائلاً: سامر! دعك من المزاح فنحن نموت برداً...هيا لا تضيع وقتنا.

غاب سامر قليلاً وعاد لنا بمدفأة أسطوانية الشكل وسطها دائرة من الفتيل الكتاني وفي أسفلها خزان يتسع لليترين من الكاز.

شكرناه ثم عدنا أدرجنا نحو اللواء بالمدفأة فرحين يساورنا قلق الحصول على وقودها.

وصلنا أطراف اللواء فطلبت من أبي الجود أن يسبقني مستكشفاً الطريق...كان يسير أبو الجود أمامي على بعد خمسين متر كاللص الحذر... تسلّلنا بخفة إلى عمق اللواء ثمّ صعدنا الجبل نلهث إلى خيمتنا ترافقنا نشوة النصر.

تفاجأ الرفاق بما نحمل بين أيدينا إلاّ وليد الذي أنّبنا لمخالفتنا القوانين وراح يؤنبنا ويذكرنا بسوء العاقبة غن كشف أمرنا... لم نكترث لكلامه كثيراً وشرعنا نتباحث في مصدر الكاز لإيقاد المدفأة، فأشار علينا أحد الرفاق أن نذهب إلى محطّة الوقود التابعة للّواء وأخبرنا أنّ هناك رقيب مجنّد من مدينتنا قد يساعدنا في ذلك.

خرجت من فوري أحمل عبوة بلاستيكيّة من فئة الخمسة ليترات وقصدت المحطّة التي لا تبعد كثيراً عنّا. كانت الساعة تقارب الثامنة مساءً عندما وصلت المحطّة، كان البرد قارصاً والسكون يخيم على المكان لا يقطعه إلا صوت كلب نابح برداً أو عواء ذئب جائع قادم من سفح الجبل كان قد زارنا مرات كثيرة وولى هارباً عندما كان يسمع خبط أقدامنا على الأرض وزمجرتنا بالشعارات الوطنية في درس العقوبة الليلية.

ناديت على الرقيب خالد الذي يسكن غرفة صغيرة وسط عشرات من براميل الوقود، فخرج مرحّباً وأدخلني غرفته الدافئة، تحادثنا قليلاً وأخبرني أنّه كان مدرّساً قبل مجيئه للخدمة العسكريّة الإلزاميّة وأنّه متزوّج وله خمسة أطفال، وشكا لي مرض والدته الذي أقلقه كثيراً وسبّب له ديوناً متراكمة فواسيته وخفّفت عنه ثمّ طلبت منه مساعدتنا في مسألة الكاز وشكوت له شدّة البرد الذي نعاني منه، وأنّ معظمنا أصابه المرض، وأنّنا حصلنا على مدفأة الكاز ونحن بحاجة إلى الوقود لنخفّف شيئاً من معاناتنا. رحّب الرجل بمساعدتنا وحذّرني من أن ينفضح أمرنا قائلاً: الحذر ثمّ الحذر يا صاحبي! والله إن انكشف أمركم ستكونون أنتم من باع فلسطين ودمّر اقتصاد الصين، ضحكت

لكلامه بينما راح هو يملأ لي عبوة الكاز البلاستيكيّة من البرميل الأزرق. سلّمني العبوة وقال: كلّما فرغت تعال واملأها من هذا البرميل دون الرجوع إليّ، وأردف قائلاً: أنتم يا أخي أحقّ من النقيب آصف الذي يسرق كلّ يوم عبوة من فئة العشرين ليتر من المازوت عنوة ولا أستطيع ممانعته.

عدت فرحاً مستبشراً، وبعد ساعة انتشر الدفء في خيمتنا وتحلّقنا حول المدفأة فرحين، وأعددنا الشاي فانفرجت أسارير صايل وراح يقصّ علينا بطولاته ومغامراته مع أخيه جاسم حتّى منتصف الليل، غلبنا النعاس فأطفأنا المدفأة وتركناها قليلاً حتى بردت ثم أخفيناها في زاوية من زوايا الخيمة تحت أكوام كثيرة من الثياب والمتاع.

تكرّر السمر والسهر حول المدفأة وأصبحت خيمتنا مقصد الرفاق المقرّبين، وكنّا نتناوب على الحراسة أمام الخيمة خشية جولة تفتيش مفاجئة.

كنّا نتناوب - كلّما نفد وقود المدفأة- على برميل الكاز الأزرق الوحيد في محطّة اللواء. وجاء دوري - ذات يوم- للتزوّد بالكاز، قصدت البرميل الأزرق فوجدته فارغاً تماماً، سألت صاحبنا الرقيب خالد عن برميل آخر فأخبرني أنّه ليس في المحطّة سواه، ولا حلّ إلاّ أن أملأ العبوة من البنزين بدلاً من الكاز. تردّدت قليلاً وقلت: بنزين؟ معقول نسرق بنزين؟ نظر إليّ بتبرم وأخذ منّي العبوة وملأها بدون تردّد ثمّ قال: يا أخي سيأخذه غيرك وسينفد أيضاً، فخذ حاجتك منه خير لك، ولا تناقش كثيراً.

قلت: من تقصد بـ "غيري"؟

قال: ابن سيادة العميد وزوجته وخالته وحماته وأقربائه من طائفة الزعيم....

قلت: يسرقون البنزين؟ كيف؟ أليس هذا الوقود مخصّص لسيّارات اللواء العسكريّة فقط؟

قهقه ضاحكاً وقال: يا أخي أنت مسكين! نفط البلد كلّه مسروق منذ سنين وأنت تكلّمني عن خمسة ليترات من البنزين.

قلت: لكن سيادة العميد يحاضرنا كلّما زارنا في الأمانة والحرص على أموال الجيش ويوصينا بالصبر على التقشّف المفروض من أجل..

قال: من أجل ماذا؟ ها، أخبرني، من أجل الصمود في وجه الاستعمار واستعادة الأراضي المغتصبة؟ يا أخي وطننا مغتصب، إرادتنا مغتصبة، عقولنا مغتصبة. استدار بعدها إلى غرفته متمتماً: حقاً تكثر الرذيلة حيث يكثر الكلام عن الفضيلة.

عدت أدراجي إلى الخيمة فاستقبلني الرفاق وقد أقلقهم تأخّري، مددت أصبعي مشيراً إلى العبوة وقلت محذّراً خافضاً صوتي: " بنزين، بنزين يا شباب" فغروا أفواههم مردّدين: "بنزين...؟ ماذا تقول...؟ بنزين؟! ".

قلت: لقد نفد الكاز ولا حلّ لنا سوى البنزين، فالحذر الحذر!

راح أبو الجود يملأ بحذر خزان المدفأة الصغير ثمّ أوقدها فعاد الدفء إلى الخيمة وتحلّقنا حول المدفأة ذات اللهب الأزرق وشرع صايل بإعداد الشاي.

عدنا للسمر والسهر والضحك، وراح رفاقنا من الخيام المجاورة يتسللون إلينا بين الحين والآخر، يفركون أياديهم، يحمحمون من شدّة البرد إلى أن دخل علينا هاني يرتجف برداً ويحمحم كحصان عجوز، ولمّا لم يجد متّسعاً حشر نفسه بين اثنين من الرفاق واتكأ على أحدهما فتعثّر الرجل بعبوة البنزين فانسكب السائل الخطر وتناثرت قطراته وبلمح البصر اشتعل المكان كلّه دفعة واحدة.

فزع الجميع وهاجوا وماجوا، ولمّا لم تُجدِ جهود إطفاء الحريق تدافعنا نحو الخارج، واشتعلت أطراف ملابس البعض منّا فراح يتمرّغ على التراب لينقذ نفسه وولّى البعض هاربين... والتهمت النيران الخيمة وما فيها من متاع بسرعة قياسيّة.

مرّ ذلك كحلم مرعب وألفينا أنفسنا في العراء تزكم أنوفنا رائحة الدخان والغبار، واجتمع المعسكر بأكمله، ولحسن الحظ كان الضبّاط والرقباء المدرّبون غائبين في تلك الساعة، فقد تسلل بعضهم إلى العاصمة للاحتفال برأس السنة وذهب البعض الآخر إلى خيمة الملازم محسن في أقصى اللواء، ولن يعودوا من سكرهم حتّى وقت متأخّر من الليل احتفالاً برأس السنة الميلاديّة.

هدأت الجلبة وانقضى الحلم المرعب فانبرى صايل خطيباً في المعسكر، واستفتح كلامه بالسبّ والشتم والتهديد والوعيد لكلّ من تسوّل له نفسه بالإخبار عن الحادث.

استجاب الجميع لكلام صايل الذي احتشد حوله أبناء مدينته وأكّدوا كلامه وتوعّدوا وهدّدوا كلّ من يشي بالأمر. ساد الصمت قليلاً ثمّ عُقِد اجتماعٌ طارئ لحلّ المشكلة التي نحن فيها قبل طلوع الفجر.

"المساعد سعد الله، لا أحد غيره" نطق بها أحد الرفاق أخيراً. المساعد المذكور هو المسؤول عن المستودع، لكنّه في بيته الآن فما العمل؟ انتدبني الرفاق وثلاثة معي أحدهم أبو الجود للذهاب إلى بيت المساعد سعد الله في ضاحية قريبة من ضواحي العاصمة.

انطلقنا نحن الأربعة قاصدين بيت المساعد سعد الله، تسللنا خارج اللواء بخفة متجاهلين عواء الكلاب الضالّة في طرف اللواء الشماليّ، ولم نعد نبالي بنسمات الصقيع التي تلسع وجوهنا. وبعد نصف ساعة من المسير وصلنا الشارع الرئيسيّ لحيّ قريب جنوبيّ العاصمة، ركبنا سيّارة أجرة وانطلقت بنا عبر شوارع غطّت حفرها الكثيرة مياه الأمطار، تتلألأ على صفحتها ضوء المصابيح الناعسة، يشقّ الصمت الذي يلفّنا صوت ارتطام عجلات السيّارة بالحفر بين الحين والآخر وتمتمات السائق وهو يشتم البلديّة التي لم تصلح الطرقات منذ خمس سنوات على حدّ قوله. لاحظ السائق تجهّمنا وعدم مشاركتنا بالحديث فارتاب في أمرنا وبدا الخوف على محيّاه واضحاً فراح يبرّئ الحكومة ويثني على الزعيم قائلاً: والله يا أخي! الله يعين الزعيم، الله يديمه فوق راسنا يا أخي، الحقّ على البلديّة...

تبسّم أبو الجود وقال: طبعاً، سيادته لو عثرت بغلة في أقصى بلادنا فهو غير مسؤول عنها، من المؤكّد أنّ سائق البغلة أرعن يا أخي، أرعن.."

وكزته بمرفقي ليسكت كاتماً ضحكتي بصعوبة.

أكمل قائلاً: يا أخي يكفي أنّ سيادته يقف وحيداً في مواجة العدوّ، وليس لديه وقت للبغال والحمير والسيّارات.

همست في أذنه قائلاً: أرجوك دع الرجل والتفت إلى ما نحن فيه، فإن لم تُحلّ مشكلتنا سنكون نحن من أضاع الأرض المغتصبة يا أخي.

هزّ رأسه مبتسماً وساد الصمت من جديد.

بعد نصف ساعة أخرى من المسير وصلنا بيت المساعد سعد الله حسب إرشادات رفيقنا مصطفى الذي كان يعرف بيت الرجل بدقّة، وذلك لكثرة ما يتردّد عليه ليشتري منه ما يستولي عليه المساعد المذكور خلسة من مخصّصاتنا العسكريّة من مادّة الأرزّ والفاصوليا لبيعها في سوق العاصمة.

قرع مصطفى الباب مرّتين، جاءنا صوت المساعد سعد الله من داخل البيت، فتح الباب بعدها ليتفاجأ بنا، عاجله مصطفى بقوله: سيادة المساعد! البس ثيابك فوراً نحن في وضع حرج. حدّق الرجل بنا متفاجئاً وقال: ما بكم؟ ماذا حصل؟

قلت: احترقت خيمتنا ومتاعنا ونريد بدلاً عنه.

فغر المساعد فاه وقال: ماذا؟ مجانين أنتم؟ من حرقها وكيف احترقت؟

قال أبو الجود: سيادة المساعد لا وقت لدينا نضيّعه، المهمّ احترقت الخيمة ونحن من سبّب ذلك بدون قصد.

زمّ المساعد النحيف شفتيه الرقيقتين ورفع رأسه رافضاً الاستجابة لطلبنا وهمّ بإغلاق الباب في وجوهنا فعاجله مصطفى قائلاً: سيادة المساعد! كلّ شيء بثمنه، نعطيك خمسمائة ليرة، هذا غير أجرة السيّارة ذهاباً وإياباً.

سكت قليلاً وقال: مستحيل... هذه مسؤوليّة كبيرة جداً.

قلت: نعطيك ألفاً.

نظر إليّ، سكت قليلاً ...لعق شفتيه ببطء ثمّ قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، سأذهب من أجل مصطفى ليس من أجلكم، ثمّ استدار قافلاً إلى غرفته وارتدى ثيابه العسكريّة وتدثّر بمعطفه الطويل ثمّ خرج برفقتنا.

قصصنا عليه حكاية الحريق في طريق العودة، كان يستمع إلينا مقطّب الحاجبين صامتاً،يمسد شاربيه الرفيعين بين الحين والآخر، وبعد أن انتهينا فكّر قليلاً ثمّ قال: يا أخي أنتم مجانين، أتدرون ماذا سيحلّ بكم لو انكشف أمركم؟ وراح يقصّ علينا أحداثاً شبيهة بما حصل معنا انتهت بعقوبات راحت تقشعرّ لها أبداننا وترتجف قلوبنا، ثمّ يذكّرنا بمنّته علينا ويثني على طيبة قلبه وشهامته.

وصلنا أخيراً إلى أقرب نقطة للواء، ترجّلنا من السيارة وتوجّهنا إلى المستودع.

تسلّلنا نحن الأربعة وخامسنا سيادة المساعد إلى قلب اللواء وكنا نسير خلفه قاصدين المستودع فهو يعرف الطريق جيّداً، فكم مشى عليه ليال معتمة وهو يحمل أكياس الأرزّ المسروق وأكياس حبّ الفاصولياء والمعلّبات ...حتّى حفظه عن ظهر قلب كما أخبرنا مصطفى.

وصلنا المستودع فتح الباب بخفّة ودخلنا خلفه وبسرعة قياسيّة، رمى إلينا بخيمة جديدة وبطانيّات وفرش ووسائد وبقيّة المتاع ثمّ زادنا قليلاً.

دسست يدي في جيبي وأخرجت ألفاً وخمسمائة ليرة كنت قد جمعتها من الرفاق ودفعتها له فتهلّل وجهه...وقال موصياً: لم أر ...لم أسمع ...لا أعرف... أفهمتم ...؟ ثمّ قفل راجعاً ...

انطلقنا نحو الخيام على سفح الجبل نجرجر متاعنا وسط الظلام...

وصلنا المعسكر يتصبّب منّا العرق رغم البرد القارس... يختلط صوت لهاثنا بصفير الريح الشتويّة العاتية....

كان الرفاق بانتظارنا يرتجفون من البرد وقد دفنوا المتاع المحروق خلف الساتر الترابيّ القريب ومهّدوا المكان لنصب الخيمة وأخفوا كلّ آثار الحريق، رحنا نعمل كخليّة نحل في إعادة كلّ شيء إلى سابق عهده، وفي فترة وجيزة كانت الخيمة منصوبة وكلّ شيء في مكانه كما كان.

مرّت سحابة الخوف وانقضى مشهد الرعب ...تمدّدنا على فرشنا العسكريّة الرطبة وسرعان ما غلبنا النوم من شدّة الإرهاق.

استيقظنا في الخامسة فجراً لأداء درس الرياضة ...بعد ساعة من الجري والتمارين الرياضيّة عدنا لتناول طعام الإفطار وبانت خيمتنا من البعيد بلون مختلف قليلاً وسط الخيام، وهذا ما أثار قلقنا بعض الشيء، فلربّما تنبّه النقيب آصف لذلك.

كان قلقنا في محلّه فقد مرّ النقيب آصف برفقة الملازم أوّل محسن من أمام الخيمة ولفت نظره لون الخيمة ونظافتها، توقّف قليلاً وراح يحدّق بها... قلّب يديه مرّتين ثمّ جال ببصره بين الخيام، نظر إلى الملازم محسن قائلاً: أتعرف، كأنّي أرى هذه الخيمة للمرّة الأولى.

نادى علينا بصوت عال، خرجنا بارتباك وخوف، بادرنا بالسؤال قائلاً: كيف تغير لون خيمتكم يا كلاب؟ ماذا فعلتم حتّى عادت جديدة هكذا؟

سكتنا قليلاً واستدرنا نحو الخيمة نبحث عن جواب سريع لسؤاله المربك. التفت إليه أبو الجود قائلاً: سيّدي! البارحة قمنا بغسلها بالماء والصابون فعادت إلى لونها الأساسي، ثمّ أكمل: سيّدي! النظافة مطلوبة وهذه الخيمة من عرق جبين دولتنا الصامدة بقيادة سيّدنا الزعيم ونحن نسترشد بتوجيهاته الحكيمة في الحفاظ على المال العامّ.

سكت النقيب آصف قليلاً ثمّ قال: شكراً لكم، شكراً لكم يا أبطال، هيّا ادخلوا خيمتكم وتابعوا إفطاركم.

دخلنا الخيمة وانفجرنا ضاحكين. وفي اجتماع التاسعة والنصف أشاد الرائد الفطن بحرصنا على متاع الجيش واهتمامنا بالنظافة وراح يشتم بقيّة الرفاق ويوبّخهم طالباً منهم الاقتداء بنا.

الشاي المر

مرت الأيام واعتدنا أكثر على الروتين الممل، وألفنا الشتائم كما ألفنا الطعام الرديء، ولم تعد تخيفنا العقوبة الليلية إلا كما يخيفنا عواء كلاب القمامة، ولم يتغير شيء من ذاك الروتين بقدوم بعض الضباط الذين كان من بينهم ضابط أبله سمين، أسمر اللون، بيضاوي الوجه، طويل القامة اسمه منهل.

كان منهل هو الضابط المناوب لليلة التي مررنا بخيمته أنا وأبي الجود مساءً بعدما خرجنا نتجاذب أطراف الحديث بعيداً عن خيمتنا لملل ألم بنا.

هبت علينا نسمة باردة من جهة الغرب حملت معها من خيمة الضابط المذكور رائحة الشاي التي حرمنا منه لفترة طويلة، وذلك بعد حادثة احتراق خيمتنا الذي سبق ذكره.

توقفت قليلاً، وأحسست بنشوة سكر على رائحة الشاي الفواحة أثارت فيّ مكامن الشوق لرشفة ساخنة منه في ذلك الجو البارد، فرفعت صوتي على الفور مخاطباً أبا الجود قائلاً: يا لثارات الشاي، ويا لثارات كليب.

التفت أبو الجود نحوي مبتسماً وقال: أتنوي الغزو يا مهلهل؟!

نظرت إليه ضاحكاً وقلت: بلى يا أخا العرب! سأدخل غرفة الضابط منهل لأطلب منه كأساً مترعة من الشاي.

ضرب أبو الجود كفاً بكف وقال ضاحكاً: لعله يسقيك عقوبة ليلية مترعة بالزحف على الحصى.

قلت: لا عليك، وتوجهت نحو الخيمة.

حاول أبو الجود منعي فدخلت الخيمة محييّاً وقلت: سيادة النقيب: ألك أم للذئب؟ (وهي كلمة تقال لتثير شهامة ونخوة المقصود بالطلب ليجيب الطالب بقوله: "فليخسأ الذئب"؛ إشعاراً بأن طلبه مجاب).

رد النقيب منهل التحية متفاجئاً وقال متلفتاً حوله: أي ذئب؟ أين الذئب؟ ومد يده إلى مسدسه، وفزع حاجبه الرقيق اللطيف شادي الذي كان يجلس قريباً من المدفأة.

كدت أنفجر ضاحكاً وقلت: سيادة النقيب! هذه العبارة تقال لاستثارة شهامة الرجال. ورحت أشرح له معناها، وهو يحدق بي ببلاهة ولما أيقنت أنه لم يفهم من شرحي

لعبارتي واستثارتي لشهامته ومروءته شيئاً، قلت: سيادة النقيب! أطلب منك كأساً من الشاي إن تكرمت.

بلحظة خاطفة التقط منهل قطعة من كبل كهربائي ثخين إلى جواره فارتجفت خوفاً وتراجع أبو الجواد نحو مدخل الخيمة.رفع منهل الكبل إلى أعلى وهوى به يميناً على فخذ حاجبه شادي صارخاً: صب الشاي يا شادي!

قفز شادي مصعوقاً من الألم، فتعثر بإبريق الشاي وتحطم كأسين فارغين وانقلب الإبريق واندلق الشاي على أرض الخيمة.

قهقه النقيب منهل وكوى شادي بضربتين أخريين خاطفتين قائلاً: ألك أم للذئب؟ ألك أم للذئب يا شادي!.

فراح شادي يتفافز كالفرد في الخيمة ويحك ظهره وفخذه متألماً فصرخ به منهل: اضحك يا شادي ، اضحك...

راح شادي يضحك ويبكي معاً في مشهد يثير شفقة أشد الناس قسوة.

ارتبكت كثيراً وارتبك أبو الجود كذلك، وحرنا كيف ننهي هذه المهزلة الأليمة التي أوقعنا بها شادي على غير قصد منا.

قلت: سيادة النقيب! أشكرك جداً، اسمح لنا بالانصراف.

صرخ بي: ليس قبل أن تشرب الشاي، ثم هوى بالكبل على شادي قائلاً: اصنع الشاي يا شادي!

مرت الدقائق العشرون كعشرون ساعة كاملة حتى حضرت الشاي.

صب شادي الشاي لي ولأبي الجود لكنه نسي أن يضيف السكر، فشربت كأساً مراً على مضض ولم أسأل أنا أو أبي الجود عن السكر خوفاً على شادي.

لم يكتف النقيب منهل بسقينا كأساً واحدة وأصر علي وعلى أبي الجود أن نشرب ابريق الشاي كله.

خرجنا من الخيمة بعدها شاكرين، بريق جاف وطعم مر، وما أن ابتعدنا قليلاً حتى نظر إلي أبو الجود وقال: لقد هزمك جساس شر هزيمة هذه المرة يا مهلهل! ثم انفجر ضاحكاً.

أنا ضابط

استدعيت ذات يوم على عجل إلى مكتب المقدّم سمعان، خرجت إلى مكتبه قلقاً، حيّيته فردّ تحيّتي بابتسامة لطيفة وطلب منّي الجلوس، قدّم لي كأساً من الشاي فتناولته بارتباك أفكّر بسبب حسن ضيافته وابتسامته الناعمة على غير العادة، سألني عن دراستي الجامعيّة وعن أسرتي ثمّ قال بهدوء: يا رقيب ثائر، أنا أدرس في كلية الحقوق عن بعد لأنّنا غير ملزمين بالحضور كحال غيرنا من طلاب الكليّات النظريّة، وقد تجاوزت سنواتي الثلاث الأولى ولم أجد صعوبة إلاّ بمادّة اللغة الإنجليزيّة، فأنا أكره الإنجليزيّة لأنها لغة بريطانيا وكما قال نهرو:" لو تقاتلت سمكتان في المحيط الأطلسي لقلت أن وراءها بريطانيا ". ثم أنّي لا أعرف منها إلاّ مبادئها الأوليّة وتجاوزت امتحاناتها لثلاث سنوات بصعوبة لكنّي رسبت بها في سنتي الأخيرة هذه مرّتين، فما الحلّ برأيك؟

ارتشفت قليلاً من الشاي وقلت: سيادة المقدّم، نخصّص ساعة كلّ يوم لدراسة المادّة إن رغبت.

قال: يا رقيب ثائر! لا أظنّ أنّني قادر على فهمها فهي مليئة بالمصطلحات القانونيّة والتراكيب الحقوقيّة، لم يتبق على موعد امتحان المادّة سوى أسبوعين.

قلت: وماذا تريدني أن أفعل يا سيادة المقدّم؟

فكّر طويلاً وقال: تدخل الامتحان بدلاً عنّي.

قلت مذعوراً: ماذا...؟ كيف...؟

قال: نعم، تقدّم الامتحان بدلاً عنّي، تلبس بزّة عسكريّة نظيفة وتضع رتب عسكريّة وتترك كلّ متعلّقاتك خارجاً ولا تبقي سوى وصل تسجيل السنة الرابعة حيث لا صورة عليه ولا إثبات لشخص صاحبه.

وقفت قائلاً: اعذرني سيادة المقدم، ذاك مستحيل، وهممت بالانصراف.

نظر إليّ بحدّة وقال: لم آذن لك بالانصراف بعد.

جلست ثانية وقلت بصوت هادئ: سيادة المقدّم إنّ ذلك يكلّفك غالياً، قد تفصل أنت من الجامعة، وأحاكم أنا...

نظر إليّ بابتسامة ماكرة قائلاً: هوّن عليك، سأكافئك؟

قلت: لا أريد، لا..

فقاطعني بنبرة حادّة: سأتدخّل بتعيينك مدرّباً عندي هنا بعد تخرّجك من الدورة، وعندها سأسهّل لك السفر كلّ أسبوع لزيارة عائلتك.

قلت على الفور: وإن رفضت ذلك؟

أرخى ظهره على مسند مقعده وقال مبتسماً: إذاً ترفض أمراً عسكرياً، وقد يتعبك ذلك كثيراً..

ساد الصمت بيننا، وبعد قليل قال بهدوء: يمكنك الانصراف الآن والتفكير بالأمر، أمامك عشرة أيّام.

حيّيته منصرفاً فردّ تحيّتي باحترام وعدت إلى خيمتي مهموماً غارقاً بالتفكير.

مرّت ثمانية أيّام ثقيلة عليّ ولاحظ الرفاق ذلك، وسألوني عن سبب استدعائي فأخبرتهم بأنّ المقدّم سمعان طلب منّي مساعدته بالإنجليزية ولم أبح بشيء ممّا دار بيننا.

في اليوم التاسع استدعاني المقدّم ثانية، حضرت إلى مكتبه محيّياً فبادرني بالقول: غداً امتحان اللغة وأرجو منك يا رقيب ثائر ألاّ تردّ طلبي، فأنت تعرف أنّ تقاعدي من الجيش سيأتي ذات يوم ولن يكفيني راتبي التقاعديّ عندها، سأجد عملاً سهلاً مربحاً أكفي به نفسي وأسرتي إن تخرّجت من الجامعة ولعلّي أعمل محامياً.

ظلّ المقدّم سمعان يستعطفني مرّة ويرغبني مرّة ويرهبني أخرى حتّى وافقته مكرهاً.

وفي صباح اليوم العاشر حضر مبكّراً وركبنا سيّارته متوجّهين إلى بيته القريب، سلّمني بزّة عسكريّة نظيفة ورتبة عسكريّة، وبعد قليل كنت ضابطاً برتبة نقيب.

توجّهت بنا السيّارة إلى الجامعة، تركت لديه كلّ ما يثبت شخصيّتي واستلمت منه وصلاً كتب عليه اسمه فقط وبعض المعلومات التي لا تثبت شخصيّة حامله، (كالتاريخ والقيمة المدفوعة واسم الكليّة والجهة القابضة...)

دخلت قاعة الامتحان منتحلاً شخصيّة ضابط مزهوّ بنفسه كديك مصريّ منتفش، نظر إليّ رئيس القاعة وقال: يا سيادة النقيب! الدخول لقاعة الامتحان ممنوع باللباس العسكريّ. صرخت بوجهه مزمجراً: وماذا يفعل ضابط قادم للتوّ من الخطوط الأولى ولا وقت لديه ليغيّر ملابسه؟ أتظنّ أنّنا نلعب؟ أنا طالب حقوق وأعرف القوانين جيّداً، نحن حماة الوطن وجنود الزعيم، فأرجو منك ألاّ تزاود عليّ.

كنت أقلقل حرف القاف بشدّة مقلداً لهجة طائفة الزعيم...

صدم رئيس القاعة بردّي الصاعق فانعقد لسانه ...همس صاحبه في أذنه بكلام غير مسموع فسكت الاثنان وجلست على مقعد الامتحان مطمئناً.

وزّعت علينا ورقة الأسئلة، التقطت القلم لأبدأ حلّها فطرق سمعي صوت غليظ: هيه، أنت يا عسكريّ...

التفت ناحية الصوت فوقعت عيني على رجل ستّيني يدخل من باب القاعة ...أبيض البشرة ...أزرق العينين... ضخم الجثة..يرتدي بزّة رسميّة، زرقاء فاتحة وقميصاً ناصع البياض بربطة عنق زرقاء داكنة مخطّطة، رجّحت أنّه الدكتور ناجي مدرّس المادّة. باغتني بنبرة حادّة قائلاً: من سمح لك بدخول القاعة بلباسك العسكريّ هذا؟

قلت بابتسامة واثقة: طبعاً رئيس القاعة، رئيس القاعة سمح لي. لم أنس أن أقلقل حرف القاف بشكل مميّز مرّة أخرى...

التفت من فوره إلى رئيس القاعة وراح يقرّعه بقسوة ثمّ التفت إليّ قائلاً: أخرج لي إثبات شخصيّتك.

دسست يدي في جيبي وأخرجت وصل التسجيل بهدوء، ردّه بنبرة حادة قائلاً: هذا لا يكفي، أريد بطاقتك الشخصيّة.

قلت بهدوء: يا دكتور! أرجو منك احترام رتبتي العسكريّة، أنا قادم بعجلة من الخطوط الأولى ونسيت كلّ متعلّقاتي في القطعة العسكريّة، أتريدني أن أنسحب من الامتحان؟ أنسحب حالاً إن أردت...

فكّر قليلاً وقال بصوت أقلّ حدّة: احضر إلى مكتبي بعد الامتحان، أفهمت؟

وضعت يدي على رأسي وانحنيت بلطف قائلاً: أوامر سيادتك يا دكتور، والآن أتريدني أن أكمل أم أنسحب؟

قال بصوت هادئ: أكمل بالتوفيق، ولكن إيّاك ألاّ تحضر إلى المكتب بعد الامتحان.

قلت: على العين والرأس، سأحضر بالتأكيد.

أنهيت حلّ الاسئلة على عجل وتعمّدت إجابات خاطئة في قليل منها، ثمّ سلّمت ورقة الإجابة، وخرجت من القاعة بخطوات واثقة نحو المقدّم الذي كان خارج سور الجامعة يرتجف خوفاً وما أن وقع بصره عليّ حتّى قال بلهفة: ها، هل أنجزت المهمّة؟

قلت: لا تقلق، تمّ كل شيء على ما يرام، لكنّ الدكتور ناجي طلب منّي الحضور إلى مكتبه.

قال: فلينتظر كما يشاء، والآن هيّا بنا.

مرّ شهر كامل وخرجت النتائج وتخرّج المقدّم سمعان في كليّة الحقوق، فكافأني بإذن لمدة ثلاثة أيّام لزيارة أسرتي، وبعدها وعدني بالمساعدة بالفرز بعد دورة التدريب، كان يعاملني باحترام ويدعوني لشرب الشاي في مكتبه بين الحين والآخر.

****

عندما يتكلّم القهر

أفتح عيوني بتكاسل وأقلّب ناظريّ بين الرؤوس المتمايلة مع حركة القطار الذي راح يشقّ صفيره الأطراف الشرقيّة للعاصمة، ترتسم بسمة كسولة على شفتيّ المرتخيتين وأنا أتملّى ركّاب الدرجة الثانية، النائمين أوالمتناومين على مقاعد القطار، فرحلة السبع ساعات المتعبة إلى العاصمة شارفت على نهايتها. رؤوس متراخية فوق الأكتاف المتعبة تتمايل ذات اليمين وذات الشمال وقد سال لعاب النوم العشوائيّ من بعض الأفواه، وأخرى مسترخية على أطراف المقاعد تغطّ في نوم عميق فاغرة الأفواه كحال المذهول، قلّة منهم اعتدلوا للتوّ بتكاسل ملحوظ.

مرّ مسؤول التذاكر في ممرّ العربات يطقطق بآلة ثقب التذاكر على أطراف مقاعد العربة مؤذناً بقرب توقّف القطار في محطّة على أطراف العاصمة الجنوبيّة الشرقيّة. تململ النائمون واستيقظوا تباعاً بتباطؤ. راح البعض يتمطّط في مكانه مصدراً صوت

آهة تعبٍ وسأمٍ مسموعة، وراح البعض الآخر يرتّب مظهره استعداداً للنزول. خفت هدير القطار العجوز وصمّ الآذان صرير عجلاته الحديديّة المتباطئة على السكّة مقترباً من المحطّة قبل الأخيرة.

قلّبت بصري في الوجوه المتعبة ورحت أستنطق العيون الذابلة لتحكي لي حكايا القهر الذي سرق الابتسامة من الشفاه المتهدّلة، وأخرس الألسنة إلاّ من الثناء على زعيمنا المعظّم.

قلت في نفسي: أكاد أجزم أنّ ذاك الراكب المُسنّ الأشيب، الذي غضّنت السنين جبينه الأسمر، ذا البنطال الأسود والقميص الأبيض ذو الياقة الكبيرة الكالحة خيوطها عند الرقبة قادم إلى العاصمة للبحث عن أوراق معاملته الضائعة في درج موظف الوزارة المُهمِل، ورثّ الثياب ذاك الذي يجلس أمامي مباشرة، ذو البنطال البني الكالح عند ركبتيه والقميص الأزرق المخطط الذي أحكمت أزراره حتّى الرقبة المجعّدة، جاء باحثاً عن راتبه التقاعديّ الذي طال نومه في وزارة الشؤون الاجتماعيّة والعمل، وقد أثقل الهمّ كاهله. أمّا ذاك الشيخ الشابّ المهموم، الشارد النظرات، ذو العمامة البيضاء والجبّة السابلة واللحية السوداء، فلعلّه مطلوب للتحقيق في فرع استخبارات رقم (...) لزلّة لسانٍ ورّطه بها نزق الشباب وحماسة الخطباء، أمّا ذاك الفلاح المسكين فلعله جاء شاكياً من رئيس نقابة الفلاّحين الذي دقّ كمسمار يصعب خلعه من رئاسة النقابة، وذاك المجنّد الكئيب لعلّه استدان – مثلي- حتّى تمكّن من العودة لقطعته العسكريّة، بل لعلّي أحسن حالاً منه، فراتبه لا يكفي لإطعام كلب قائد اللواء ليوم واحد، أمّا راتبي فثلاثة أو قل أربعة أضعاف راتبه. تفرّست في وجوه الركّاب طويلاً ثمّ رحت أردّد كلمات أحمد مطر:

نموت ليحيا الوطن

أيّ وطن؟

الوطن المنفيّ

أم الرهين المرتهن؟

أم سجننا المسجون خارج الزمن؟

أخذت نفساً عميقاً وأرسلت ناظريّ إلى البعيد حيث اللواء الذي يقع في طرفه الغربيّ معسكرنا، وبانت خيامنا البائسة تغطّيها بقايا ثلج كانون وتعبث بها الريح. تصارعت خواطري ومخاوفي واضطربت مخيّلتي عندما وقع بصري على جبل "أبي السعود"

و" جبل وردان" وقمّتة المطلّة على اللواء 70 سيّئ السمعة، قلت في نفسي: ماذا لو رماني الحظّ العاثر مفروزاً إلى ذلك اللواء بعد أن أنهيت مع رفاقي ستّة أشهر من التدريب؟! لا لا المقدّم سمعان لا أظنّه يخلف بوعده، لقد أقسم أن يبقيني مدرباً عنده... استغفرت الله وشعرت بخوف غامض يسري بين جوانحي...ردّدت في نفسي: "يا خفيّ الألطاف نجّنا ممّن نخاف"، كانت تلك كلمة أمّي المرحومة إذا خافت شيئاً.

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً عندما نزلت من القطار وتوجّهت إلى المعسكر لاستلام الفرز والالتحاق بالقطعة العسكريّة الجديدة. كان القلق ينسيني نعاسي وتعبي وأنا أتسلّق الجبل نحو الخيام، اعتليت المصطبة الصخريّة على سفح الجبل فجاءني صوت أبي الجود عالياً: اللواء 70، اللواء 70 يا صاحبي، تمّ فرزك إلى اللواء 70.

أحسست بالدوار وأظلمت الدنيا في عيوني، اقتربت أكثر من اللائحة الملصقة على جدار غرفة المقدّم سمعان فوقع بصري على اسمي تقابله الكلمة التي كنت أرتعد من رؤيتها: "الفرز إلى اللواء 70 كقائد ناقلة جنود". استدرت إلى الخلف ببطء شديد، مسحت وجهي بكفّي، أغمضت عيوني قليلاً ثمّ أسندت ظهري إلى جدار الغرفة، هممت أن أدخل الغرفة لأبصق على المقدم سمعان، لكن الحمد لله، لم يكن موجوداً...لقد أخلف الرجل وعده...قلت في نفسي حزيناً...

كان الهرج والمرج وقبلات الوداع بين الرفاق وأصواتهم تخفت شيئاً فشيئاً في مسمعي، اقترب مني صايل صامتاً حدقت في عينيه... تبادلنا نظرات حزينة ما لبث بعدها أن اعتنقني والدموع على خديه غزيرة وهمس في أذني: سامحني يا ثائر...سامحني...سأفتقدك كثيراً...لقد غيرّتَ الكثير في حياتي...

اقترب مني بعدها أبو الجود مختنق الدمعة وضمني بقوة مردداً بصوت مسموع:

ألا ليت شعري - يا ثائر- والدنيا مفرقة بين الرفاق وأيام الورى دول

ثم استدار مبتعداً يمسح دمعته ملوحاً بيد كليلة وبسمة حزينة ...تبعه ما تبقى من الرفاق مغادرين إلى قطعاتهم العسكريّة الجديدة...وساد هدوء حزين على المكان بعدما خلا من اللغط والصخب والضحكات وقبلات الوداع...

صحوت من ذهولي وحزني على صوت زميلي وليد المفرز معي إلى نفس اللواء، وهو يقول بصوت خافت: هيّا نلتحق باللواء 70 فالوقت يمرّ، علينا أن نواجه قدرنا بشجاعة يا ثائر.

حملت حقيبتي ومشيت خلفه بصمت، وبعد ساعة من المسير جنوباً وصلنا بوابة اللواء البيضاء المقنطرة والتي يرفرف فوقها علم البلاد وعلى جانبيها صورتين عملاقتين للزعيم وابنه، كان اللواء العسكري يقبع في وادٍ بين جبلين أسودين قاحلين، جبل أبي السعود في الغرب وجبل بسمان الوعر في الشرق وتتناثر مبانيه طويلاً على تباب متباعدة ويمتد حتى سفح جبل وردان، ذو القمة الشامخة في الجنوب.

مددنا أيدينا بالبطاقة العسكريّة لمساعد الشرطة العسكريّة ذو القبّعة الحمراء والشاربين المتهدّلين، المنتفش كطاووس والذي يقف على الباب مع ثلاثة من الجنود ذوي القبعات الحمراء والمظاهر الانضباطية المميزة، فأعطانا ورقة الدخول وأشار بيده إلى كتيبة المشاة المفرزين إليها في صدر الجبل أقصى جنوب اللواء وقال بصوت رصين: هيا التحقوا بكتيبتكم حالاً...

كانت المسافة خمسة كيلومترات علينا أن نقطعها سيراً على أقدامنا، كنّا نسير ببطء تمرّ بنا السيّارات العسكريّة المهلهلة، وفرادى من المجندين يحملون قصعات طعامهم متوجّهين إلى مهاجعهم المستطيلة ذات الحجارة السوداء، المتناثرة هنا وهناك.

يقع بصري بين الحين والآخر على مخابئ الدبّابات وناقلات الجند العسكريّة، أتأمّل صور الزعيم التي تزدحم بها واجهات المكاتب العسكريّة، وأقرأ مكرهاً أقواله الخالدة بملٍ: "الوطن غالٍ، الوطن عزيز، الوطن شامخ، لا نساوم على حقوقنا المغتصبة".

ضحكت بصوت عالٍ عندما وقع بصري على لوحة كبيرة كتب عليها: "قادمون يا فلسطين". التفت نحوي وليد مستغرباً وكأنّه يسألني عن سبب ضحكتي المستفزّة، فأشرت إلى اللوحة وقلت:

هرم الناس وكانوا يرضعون

عندما قال المغنّي إنّا عائدون.

نظر إليّ وبادلني ابتسامة باهتة ثمّ تابع السير، لحقته وأنا أدندن:

يا فلسطين وما زال المغنّي يتغنّى

وملايين اللحون

في فضاء الجرح تفنى

واليتامى من يتامى يولدون

ولقد عاد الأسى للمرّة الألف

فلا عدنا ولا هم يحزنون.

يتلوّى بنا الطريق في بطن الوادي الأجرد الذي تحاصره الجبال الثلاثة، ثمّ يرتفع بنا صعوداً تدريجياً نحو سفح جبل وردان الشماليّ في جهة الجنوب، حيث كتيبة المشاة. توقّفنا قليلاً فوق تبّة صغيرة عند مدخل الكتيبة لنستردّ أنفاسنا اللاهثة، جلت ببصري يميناً ويساراً حيث مهاجع الجنود المستطيلة المتباعدة ذات الأسطح المقنطرة، ومكاتب الضبّاط المتناثرة ذات الحجارة السوداء الكالحة، وعنابر ناقلات الجند الغائرة في صدر الجبل، أحسست بتصلّب في شراييني زاد من دقّات قلبي المتسارعة وداخلني خوف من الثمانية عشر شهراً القادمة المتبقية من خدمتي الإلزاميّة في الجيش.

تابعنا السير باتجاه مكتب ذاتيّة الكتيبة المختبئ في بطن هضبة صغيرة ككهف يدلّك عليه طريق ترابي ضيّق صنعته خطى المجنّدين الثقيلة المتردّدة عليه، تصطف على جانبيه شجيرات صغيرة يابسة متفرقة تعلو أغصانها الجرداء بقايا ثلج كانون، في نهايته درج صخري قصير، قادنا هبوطاً إلى غرفة بيتونية صغيرة تفوح منها رائحة الرطوبة ذات سريرين عسكريّين مرتبين، وطاولتين حديديّتين قديمتين تختلط فوقهما - بفوضى- سجلّات عسكريّة كبيرة، ومدفأة تتراقص نيران زرقاء داخلها، وبعض كؤوس الشاي الفارغة وأقلام الحبر الجافّ وقبعة عسكرية وبعض الأوراق الرسمية وأختام خشبية مختلفة الأحجام وفي صدرها علقت صورة الزعيم وابنه البكر.

استقبلنا رقيب أشقر باشّ الوجه جميل الملامح، ذو شاربين شقراوين رقيقين وبزة عسكرية نظيفة، ردّ على تحيّتنا ببسمة مريحة قائلاً: أهلاً بكم، هل أنتم المفرزون إلى كتيبتنا؟

هززت رأسي بنعم وداخلني شعور بالراحة والأنس بالرجل فقلت: لكنّنا سمعنا الكثير ممّا أرّقنا عن هذا اللواء.

قال: لا عليكم، ستعتادون على ذلك بعد مدة، فليس شيء أهمّ من الرياضة هنا، الجري، الجري أهم شيء هنا.

قلت: والإجازات؟ كم المدّة التي يمضيها العسكريّ هنا حتّى يسمح له بإذن لزيارة لأهله؟

نظر إلى زميله الأسمر الذي يجلس إلى جانبه والمنشغل بترتيب أوراق في ملف بين يديه وقال ضاحكاً: صاحبنا مستعجل جدّاً يا أمين. فتضاحك الاثنان بصوت عالٍ ثمّ

أردف قائلاً: يا حضرة الرقيب! إذن مغادرة اللواء كلّ ستّة أشهر أو قل سبعة...أخذ رشفة من كأس الشاي ثم أردف: أنصحك أن تنسى ذلك وتهتمّ بنفسك الآن. سجّل اسمينا في سجل كبير ثم أغلقه بهدوء قائلاً: عليكم الآن الالتحاق بالسرية الثالثة لتنظمّوا إلى زملائكم بسرعة فقد حان وقت الغداء وعليكم أن تتداركوا الأمر قبل فوات الوقت...

خرجنا من المكتب محبطين وتوجّهنا إلى مهجع السرية الثالثة، التفت نحوي وليد وقال: يا أخي لا تشغل بالك كثيراً وحاول أن تنسى عائلتك وأولادك ريثما نتبيّن الأمر، وسيجعل الله بعد عسر يسراً.

تبعته صامتاً نحو مهجع السرية المستطيل، الرابض على تبة صخرية مسطحة أقصى جنوب اللواء بسقفه المقنطر وبابه الحديديّ السميك ونوافذه الستة المتقابلة...دخلنا المهجع فوقع بصري على ثلاثين سريراً حديديّاً، صُفّت رتلين متقابلين يفصل بينهما ممرّ طويل ينتهي بفسحة صغيرة في صدر المهجع، تحلّق الرفاق حول مدفأة في وسطها، رحّب الجالسون حول المدفأة ببرود بادٍ سوى الرقيب عمّار والعريف صبحي؛ فقد أفسحوا لنا مكاناً وسألوننا عن أسمائنا وعن الدورة التدريبيّة وعن تخصّصنا الجامعيّ، ثمّ قدّموا لنا بقيّة طعام من بطاطا مسلوقة وقليلاً من الأرز، وما أن انتهينا حتّى التفت إليّ الرقيب عمّار قائلاً: كم المتبقّي من خدمتك العسكريّة يا حضرة الرقيب ثائر؟

قلت: ثمانية عشر شهراً فقط.

نظر إليّ وهزّ رأسه قائلاً: قلت لي "فقط"، أليس كذلك؟

ثمّ التفت إلى وليد قائلاً: وأنت يا حضرة الرقيب وليد؟

أخذ وليد نفساً عميقاً وقال: بالنسبة لي، لم أنهِ الجامعة ولذلك سأبقى بعد الرقيب ثائر ستّة أشهر فقط.

أطلق العريف صبحي ضحكة مستفزّة كمواء قطّ ماكر وقال: هل سمعت يا عمّار ما يقوله وليد، يقول فقط، ستّة أشهر فقط!

مدّ عمّار يده إلى سريره القريب وراح يهزّ رأسه يمنة ويسرة كحال الأسف الحزين، وبخفّة أخرج من تحت وسادته لائحة طويلة متمتماً: حسبنا الله ونعم الوكيل، الله يهوّن عليكم.

نظر في اللائحة برصانة وقال موجّهاً كلامه للعريف صبحي: أمسك آلتك الحاسبة يا صبحي واحسب معي: 18 شهراً X30 يوماً = كم؟

-: 540 يوماً، ردّ صبحي على الفور بعد أن ضغط أزرار حاسبته بسرعة ملفتة.

-: احذف منها 15 يوماً إجازات مغادرة للبيت، كم تبقى؟

ردّ صبحي ثانية بصوت ناعم كأنثى حزينة:

-: طبعاً يساوي 525 يوم.

-: اممم، اضرب 525 يوماً في 1 كيلو من البرغل .

نظر صبحي وضغط على أزرار آلته الحاسبة وهو يقول:

-: هذه سهلة 525 كيلو.

أخذ عمّار نفساً عميقاً، حدّق بنا ملياً ثمّ قال بصوت منخفض:

-: أي ما يقارب 26 كيساً من فئة العشرين كيلوغرام ومثله من البطاطا، أمّا الماء فاحسب يا صبحي، كل يوم 5 ليتر كم يساوي؟

تمتم صبحي وهو ينظر في آلته الحاسبة:

يساوي 2625 ليتراً، أي خمسة خزّانات ماء من فئة الخمسمائة ليتر.

رحنا نتبادل أنا ووليد النظرات المستغربة وراح صبحي يكمل: الجري يا عمّار، كأنك نسيت الجري اليوميّ؟

نظر إلينا الأخير بحزن مصطنع وقال: لا تؤاخذوني، قاتل الله النسيان.

التفت إلى صبحي وقال: هذه سهلة، 525 يوماً لو ضربناها ب 10 كيلو متر تساوي 5250 كيلو متراً. أمّا التمرين على...

نفد صبري، انتفضت واقفاً وصرخت في وجهه: يا أخي، ما الذي تريد قوله بالضبط، ها، أخبرني؟

تفاجأ بسبّابتي المرتجفة غضباً أمام عينيه وصوتي الذي نبّه باقي الرفاق.

قال: هوّن عليك يا رقيب ثائر، لا تغضب، فالأمر أهون من ذلك، أريد أن أقول إنّك تحتاج لتناول 26 كيساً من البرغل فقط، ومثلها من البطاطا وتشرب خمسة خزّانات من الماء النقيّ، وتقطع نفس المسافة بين عاصمتنا وكوالالمبور عاصمة ماليزيا لتسرّح من الخدمة العسكريّة، لكنّ المصيبة عند صاحبك وليد.

دفعني صبحي بخفّة وأجلسني على الكرسيّ وقال بهدوء: والله عندي حلّ، المسألة بسيطة يا جماعة، ثمّ أمسك بيدي وجرّني برفق إلى نافذة المهجع القريبة، فتحها برفق فلسعنا زمهرير قادم من الوادي القريب ولاح لنا ضوء مصباح ناعس من البعيد في شعب بين جبل أبي السعود وجبل وردان، أشار بسبّابته إليه قائلاً: بإمكانك الهرب من هناك، لا توجد حراسة في هذا الثغر، وتلك الخيمة المنصوبة على فم الشعب - بين جبلي وردان وأبي السعود - تتبع كتيبة الدفاع الجويّ، ولا علاقة لها بالمتسلّلين من لوائنا... وبإمكانك التسلل بعد غياب الشمس دون أن يعترضك أحد، وسيسقط جرم هروبك من الخدمة الإلزاميّة بالتقادم عندما تبلغ الأربعين من عمرك.

دفعته بقوّة صارخاً في وجهه: وأنت والكلب عمّار لماذا لم تهربوا.. ها؟ أفهمني يا ساقط؟

وقع صبحي النحيف أرضاً واندفع الرفاق نحونا يتقدّمهم وليد بيده سكّين حادّة صارخاً مهدّداً صبحي وعمّار، أمسك الرفاق بوليد وأقبلوا عليّ يسترضونني مقسمين أنّ ذلك مجرّد مزاح وأن عمّار وصبحي يفعلان ذلك مع كلّ قادم جديد. أقبل عمّار وصبحي ضاحكَين معتذرَين، فهدأ غضبنا وجلسنا حول المدفأة نحتسي الشاي ونتضاحك معاً، ورحت أردّد قول الشاعر:

أعلّل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحةُ الأمل

لكنّ وليد همس في أذني: مهلاً، والله لأجعلنّ صبحي هو من يفكر بالهرب فقد أعددتُ خطّة لذلك.

فارس الظلّ الحزين (دونكيشوت)

راح رفاقنا ينسلّون من بيننا الواحد تلو الآخر ليندسّوا في أسرّتهم ولم يتبقّ حول المدفأة إلاّ أنا ووليد والرقيب عمّار الذي راح يتثاءب هو الآخر ويتهيّأ للانصراف

قائلاً: يا رفاق! لقد بدأت اختبارات الجيش وغداً عندنا اختبار سباق الضاحية، عليكم النوم باكراً.

ساورني القلق لسماع ذلك فقلت: يا عمّار أنا غير قادر على تحقيق "درجة جيد" في سباق الضاحية وكذلك وليد، فهل هناك مشكلة؟

التفت إليّ وكان فقد مشى خطوتين نحو سريره وقال:

نعم بالتأكيد هناك مشكلة لأنّك ستخرج للتدريب بعد الغداء في كلّ يوم لتقطع مسافة عشرة كيلومترات جرياً بإشراف قائد الكتيبة نفسه.

زاد قلقي فتبادلنا النظرات أنا ووليد وهممنا بالانصراف إلى أسرّتنا فتذكّرت أنّي لم أصلّ العشاء. قمت على عجل وتوضّأت ثمّ تبعني وليد وأدّينا صلاتنا فوق أسرّتنا بخفّة. كان العريف سمير يسترق النظر إلينا من سريره ويهزّ رأسه وكأنّه يتوعّدنا، لاحظ وليد ذلك فهمس في أذني: نظرات الرجل إلينا توحي بشيء لم أفهمه بالضبط. قلت: دعك من ذلك ولا تقلق.

استيقظنا في السادسة صباحاً وطفق الرفاق يستعدّون للاجتماع الصباحيّ بينما توضّأنا أنا ووليد وصلّينا الفجر على أسرّتنا على عجل، لبسنا ثيابنا العسكريّة وخرجنا وراءهم وراح أفراد السرايا يتقاطرون على ساحة الاجتماع من كل صوب. وقع بصري من بعيد على العريف سمير يؤدّي التحية العسكريّة لقائد السرية "النقيب يحيى" ويسرّ في أذنه شيئاً مشيراً إليّ، ساورني القلق من ذلك كثيراً.

انتهى الاجتماع بتحيّة العلم والنشيد الوطنيّ وجاءت الحافلات لنقلنا إلى مضمار السباق، وقبل صعودي الحافلة ناداني النقيب يحيى، اقتربت منه وأدّيت التحيّة العسكريّة كالمعتاد. لم يردّ عليّ تحيّتي بل راح يتأمّلني من رأسي حتّى قدميّ، بادرني قائلاً: أنت الرقيب الجديد؟

-: نعم سيّدي.

صمت قليلاً وقال بهدوء: سمعت أنّك تصلي.

- : نعم سيّدي.

- : ألا تعلم يا حضرة الرقيب أنّ الصلاة ممنوعة في الجيش؟ قال باستخفاف.

- : سيّدي! هل هناك قانون يمنع الصلاة؟ وأردفت قائلاً: سيادة الزعيم يصلّي، وقال ذلك في خطابه.

قهقه عالياً وهو يقول: يا حضرة الرقيب العب غيرها، فهذه مكشوفة، يمكنك الاقتداء بالزعيم بكلّ شيء إلاّ في هذه، الزعيم يخاطب البسطاء من الناس، ألا تفهم؟ هيّا انصرف وأخبر صاحبك بذلك.

أدّيت تحيّة الانصراف واستدرت نحو الحافلة فأمسك ذراعي وقال: هذا التحذير الأوّل والأخير أفهمت؟

قلت: حاضر، حاضر سيادة النقيب، ثمّ صعدت الحافلة وأنا غارق بالتفكير أقول في نفسي: أيّ ضرر ستلحقه الصلاة بالجيش العقائديّ -كما يسمّونه– وأيّة عقيدة تلك التي تمنع المرء من أن يؤدّي صلاته؟! رحت أردّد في سرّي: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى... ألم يعلم بأنّ الله يرى؟

وصلنا مضمار السباق وكان قائد اللواء بانتظارنا يرافقه رئيس أركانه وقادة الكتائب وبقيّة الضبّاط. كانت مسافة السباق ثلاثة كيلومترات علينا أن نقطعها في مدّة محسوبة بالدقائق والثواني، ففارق الدقيقة الواحدة أو الثواني المعدودة تعني درجة مختلفة تتراوح بين درجة الممتاز والجيّد وغير المقبول. اصطفت الكتائب في وضع الاستعداد...راح قلبي يخفق بشدة وأحسست بارتجاف في قدميّ ...أعطى قائد اللواء إشارة البدء فانطلقت الكتائب نحو خطّ النهاية. جريت بأقصى طاقة لدي حتّى انقطع نفسي وتصبّبت عرقاً، وصلت أخيراً وسلّمت بطاقتي لضابط خطّ النهاية فلم يستلمها ارتميت أرضاً متلاحق الأنفاس. أحسست بدوار رهيب، تمنّيت لو طال استلقائي على التراب الرطب، كاد يغلبني النوم لولا أنّ حافلة العودة بدأت تتحرّك وصوت الضبّاط راح يعلو وهم يصرخون بنا لركوب الحافلة فوراً. وقفت بصعوبة وصعدت الحافلة وأنا منهك الجسد يدور رأسي من التعب.

عدنا أدراجنا إلى الكتيبة لتناول الإفطار وفي الدرس الأوّل قُرِئت أسماء من يتوجّب عليهم الحضور لدرس الرياضة الإضافيّ بعد الغداء لعدم تجاوزهم "درجة المقبول" وكان ما توقّعت فقد ورد اسمي واسم وليد كذلك في لائحة المعاقبين بدرس الجري بعد الغداء ولمسافة عشرة كيلومترات.

لم يشغلني ذلك بقدر ما شغلني تهديد النقيب يحيى ووعيده إن عدت للصلاة. اقترب منّي وليد قائلاً: ما لي أراك مهموماً والكآبة تعلو محيّاك؟

حدّثته بما حصل بيني وبين النقيب يحيى وتهديده لي، فعلت وجهه الكآبة هو الآخر وساد الصمت بيننا.

انتهى برنامج الدروس الروتينيّة اليوميّة وعدنا في الثانية والنصف ظهراً لتناول الغداء، تناولنا غداءنا على عجل وتسلّلت من المهجع وانطلقت قاصداً تبّة صغيرة وخلف صخرة كبيرة أدّيت صلاة الظهر بعجلة وقلق، وما أن قفلت راجعاً حتّى علا صوت مكبّرات الصوت للاجتماع لدرس الرياضة الموعود.

توجّهت نحو ساحة اجتماع الكتيبة. تفقّد قائد الكتيبة الحضور ثمّ انطلقنا على الطريق الرئيسيّ للّواء يتبعنا قائد الكتيبة بسيّارة الجيب العسكريّة. كانت المسافة طويلة جدّاً والتقصير بالجري يعني صدمة مؤلمة من مقدّمة سيّارة قائد الكتيبة قد تسقطك أرضاً فيفزعك صوت منبّه السيّارة وصراخ قائد الكتيبة نفسه لتقف مذعوراً بعدها. بين الحين والآخر يخرج البعض عن المسار متقيّئاً ما تناوله في غدائه من البطاطا المسلوقة واللبن، فلا يسلم من الشتائم والركلات القاسية التي تستحثّه على اللحاق برفاقه. قطعنا مسافة الخمسة كيلومترات الأولى بمشقّة بالغة ثمّ راحت أرجلنا تتحرّك بطريقة تلقائيّة أشبه بآلة ميكانيكيّة. مال قرص الشمس نحو المغيب ولم نعد نشعر بالتعب في طريق عودتنا إلى الكتيبة. وصلنا نقطة الانطلاق أخيراً وجاءنا الأمر بالتوقّف فلم نتمكّن من تنفيذه إلاّ بعد عدّة دقائق. صوت اللهاث ورائحة العرق والغبار اختلط كلّ ذلك مع خيوط مساء متعب، لقد شارفت الشمس على المغيب ولم يتبقّ مزيد من الوقت لصلاة العصر. انصرفت السرايا سوى سريّتنا، وقف قائد سريّتنا النقيب يحيى بنا خطيباً يتكلّم عن أهمّيّة الرياضة في الجيش العقائديّ مستشهداً بأقوال الزعيم عن الرياضة، ولم يعطنا أمراً بالانصراف حتّى غابت الشمس وحلّ المساء.

مشيت بتثاقل حزيناً كاسف البال، عائداً إلى المهجع وكان وليد يسير إلى جانبي متأوّهاً بين الحين والآخر. توقّفت قليلاً واستدرت نحوه قائلاً: شغلنا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، أشغله الله بنفسه.

نظر إليّ وقال مبتسماً: أثقلت الدعوة على قائد من قادة جيشنا الباسل يا صاحبي؟

جاملته بابتسامة كسولة وقلت: كان دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على من حبسه عن صلاة العصر أشد من ذلك بكثير.

صمت قليلاً وقال: لكنّ الرياضة أساسيّة للجيش العقائديّ، كما قال الزعيم.

قلت: كأنّك تستفزّني يا صاحبي بهذه السخافات! اسمع يا أخي، هذا "الدونكيشوت" الذي يسمّونه الجيش العقائديّ لا يحمي أرضاً ولا يحرّر شبراً، إنّما يحمي المستبدّ المسمّى "زعيماً" من غضب القطيع المسمّى "شعباً"، ما هذا الجيش إلاّ كفارس الظلّ الحزين، يقاتل طواحين الهواء، إنّه "دونكيشوت" الذي حسب قطيع الأغنام جيشاً عرمرماً فشنّ هجوماً عليه بسيفه الصدئ ودرعه القديم فقتل الكثير منها، لكنّه فقد الكثير من أسنانه تحت ضربات حجارة الرعاة.

يا وليد! هذه الدبّابات الصدئة وناقلات الجند العجوز والمدافع الخرساء لا تنطق إلاّ إذا شرد القطيع عن المرعى.

نظر إليّ وليد وراح يستفزّني مردّداً كلمات الزعيم: الوطن غال، الوطن عزيز..بوعيكم سنحرّر الأرض...

قلت: والحظيرة وطن، والمرعى وطن، وكذا الجهل وطن، لكنّ الوعي هو المنفى يا صاحبي...

استدرت مسرع الخطى لندرك صلاة المغرب خلف الصخرة الحنون ولحق بي وليد صامتاً.

السجن أحب إلي...

نظرةً إليّ ونظرةً إلى إبراهيم وملامح الغضب تتجلى في تقطيب حاجبيه واتساع حدقتي عينيه...مددت يدي إلى ذقني وأمسكتها برؤوس أصابعي بلطف وأملت رأسي قليلاً نحو اليمين وحركت شفتي بلا صوت ففهم أني أرجوه أن يتحلى بالصبر.

لم يطل صبر وليد كثيراً على قسمة إبراهيم الضيزى للطعام بيننا والذي بان تحيزه واضحاً عندما أعطاني أنا ووليد بيضتين وحبة برتقال واحدة وأعطى كل واحد من الرفاق بيضتين وحبة برتقال كبيرة. قال وليد بنبرة حادة: رقيب إبراهيم! اتق الله واعدل بيننا فكلنا رفاق سلاح.

رفع الرقيب إبراهيم - الذي كان يكرهنا لسبب لا أعرفه - رأسه وقال بصفاقة: يا رقيب ثائر! تعرف أني اليوم مسؤول عن المهجع وأنا أخاف الله أكثر منك ومن جدك، ولكن يبدو أنك كنت جائع في بيت أهلك.... حاولت التدخل بلطف لولا أن تصرف وليد

المفاجئ حال بيني وبين ذاك وذلك عندما رمى البيضة في وجه إبراهيم وتبعها بصفعة على خده رنّ صوتها بين جدران المهجع واشتبك الاثنان على أثرها فوراً وتبادلوا اللكمات...فصلنا بينهما وأمسكت وليد الغاضب وكان يصرخ: لو لم يكن جدك زنديق لأنصفت بين رفاقك. التقط إبراهيم كلمة وليد الأخيرة وقال: اشهدوا...اشهدوا يا رفاق إنه يكفّرني.

ظننت أن المسألة ستكون عابرة لولا أني ذهلت لوقوف الرفاق خوفاً - سوى خالد - مع إبراهيم يحرضونه أن يشتكي لضابط أمن اللواء من وليد بتهمة التكفير وأنهم شهود على ذلك...

أدركت أن المسألة بلغت من الخطورة الدرجة القصوى، فهذه التهمة كافية ليضيع وليد في دهاليز التحقيق في فرع المخابرات العسكرية. هرع إبراهيم إلى سريره وأحاط به الرفاق وأخرج على الفور من حقيبته ورقة وشرع بكتابة الشكوى.

حاولت تدارك الأمر بسرعة فرحت أتوسل إلى إبراهيم أن يكف عن ذاك وأننا رفاق وأن المسألة سوء تفاهم، وذلك ليقيني أن التهمة التي ستوجه إلى وليد سترميه في غيابة السجن إلى أمد من الصعب التكهن بمدته.

فاجئني موقف وليد الذي جرّني من يدي بقوة قائلاً: فليفعلوا ما يشاؤون...

قلت له بصوت منخفض محذراً: وليد! ستعتقل...ستدخل السجن...صرخ بصوت عال في وجهي: أنا لست مثلك...أنت جبان...السجن أحب إليّ من أن أرجوهم...

قلت بحرقة: وليد! السجن لا تعرفه أنت...إن رغبت به فليكن على شيء ذا قيمة...

صرخ بي: السجن للرجال يا جبان.

قلت بهدوء: يا وليد! أولاً: أنا لا أرجوهم من أجلي بل من أجلك وخوفاً عليك...وثانياً: سل الله العافية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم...

سكت ولم يجب، اختطفت ورقة الشكوى من يد إبراهيم ومزقتها واحتضنته قائلاً: أنا أعتذر لك عن هذا الغبي ونحن أخوة ...رفاق سلاح. وظللت أسترضيه ليكف عن تقديم الشكوى حتى كفّ عن ذلك مكرهاً.

وجدت في نفسي ألماً وخيبة لتصرف وليد وموقفه نحوي وخرجت من المهجع لأستنشق قليلاً من الهواء فلحق بي على الفور...

قال: ما بك...؟

-: لا شيء ...دعني...

-: لن أدعك...قل لي ما بك...؟

-: يا أخي! لو لم أخاف عليك لما تدخلت بالمسألة.

-: ليتك لم تفعل، ولأدخل السجن...

-: لو دخلت سجونهم يا وليد لعرفت سبب تدخلي الملحّ...

-: بل قل تدخلك المذل...

شعرت بغضب شديد فكتمته بصعوبة وقلت بنبرة حادة: أسأل الله أن تدخل السجن سبعة أيام فقط لترى.

-: فليكن...

تركته وعدت كاسف البال حزيناً وسارعت من فوري للنوم استعداداً لسباق الضاحية ذا الثلاث كيلومترات في اليوم التالي.

استيقظنا باكراً...ولبسنا ثيابنا وأخذنا استعدادنا ...فأقبل نحوي وليد قائلاً كالمسترضي: هات بطاقتك الصغيرة لنعطيها لسيف يسلمها في خط النهاية بعد أن يخفيها تحت بطاقته بشكل متطابق لتحقق درجة الإمتياز.

قلت: لا...لن أفعل...

قال: سأفعل أنا وستبقى أنت معاقب بدرس الرياضة المسائي...

قلت: لك ذلك...أما أنا فلا أغش...

قال ضاحكاً: فلتهنأ بدرس الرياضة المسائي يا أبا يزيد البسطامي.

نظرت إليه ملياً ولم أتكلم...انطلقت بنا الحافلة نحو خط البداية...وبعد ربع ساعة ترجلنا وأخذنا مواقعنا...وبعد قليل تلقينا إشارة الانطلاق...جريت بأقصى سرعة عندي...مررت بوليد يجري ببطء فراح يداعبني قائلاً: غير مقبول...غير مقبول...لا تحاول يا حضرة الرقيب...

تجاوزته ولم أرد عليه ودبّ فيّ حماساً وتصميماً على تحقيق درجة الجيد على الأقل.

وصلت بعدما يقارب من إحدى عشر دقيقة منهكاً وكنت آخر من يجتاز خط النهاية بمركز جيد...وضع قائد اللواء بطاقتي التي كانت الأخيرة في محفظته ولم يستلم بعدها بطاقة أحد لانتهاء زمن مركزالجيد ثم انطلق في سيارة "الرنجروفر" البيضاء عائداً إلى اللواء ليسلّم البطاقات التي حققت المراكز الثلاث الأولى، الممتاز والجيد جداً والجيد فقط، لتنظّم أسماءهم في لائحة المعفيين من درس الرياضة المسائي.

ركبنا الحافلة عائدين فأحسست بدوار رهيب وكدت أتقيأ من شدة التعب...بعد دقائق معدودة توقفت الحافلة عند بوابة اللواء وصعد مساعد الشرطة العسكرية ذا الشاربين الغليظين المتهدلين إلى الحافلة ونادى: سيف السعدي ووليد النوري...

رفع الاثنان يديهما ...تفاجأ كل من بالحافلة لما طلب المساعد المكفهرّ الوجه من الإثنين المذكورين وبلهجة صارمة النزول فوراً قائلاً: بأمر قائد اللواء هيا ترجّلا إلى السجن أيها الغشاشين.

لقد كشفت حيلة وليد وسيف... امتقع وجه وليد ...مر بي مترجلاً من الحافلة ولحظني بعينه وكاد أن يقول شيئاً فدفعه مساعد الشرطة العسكرية بظهره دفعة قوية كادت تسقطه أرضاً صارخاً به: هيّا يا غشاش...انزل بسرعة...

انطلقت الحافلة بعدها قاصدة كتيبتنا وتساءل الرفاق عن الغش الذي فعله الرفيقان والعقوبة المتوقعة وساد لغط التوقعات وهمسات الرفاق ولذت بالصمت حتى وصلت الحافلة ساحة الكتيبة...

دخل وليد السجن...وبأمر قائد اللواء نفسه...فمن يجرؤ على إخراجه غير من أعطى ذلك الأمر.

مرّ أسبوع كامل كنا نرى من البعيد خروج السجناء للعقوبة الصباحية عراة الصدور محلوقي الرؤوس...يسوقهم مجند من الشرطة العسكرية بعدها إلى زاوية اللواء ليدخلوا اسطبلات خيل قائد اللواء.

مرت سبعة أيام كاملة ولا خبر عن وليد...كنت مهموماً من أجله كثيراً...وذات صباح بعد رجوعنا من درس الرياضة الصباحي وانهماكنا في إعداد الفطور سمعت صوت وليد قادم من أسفل الوادي يصيح: ثائر(يمد الألف طويلاً)...يا ثائر...اعدد لي بيضتين بسرعة...بسرعة يا ثائر...

خرجت من المهجع فوقع بصري على وليد يصعد السفح ناحيتنا...فغمرتني السعادة ورفعت يداي إلى أعلى ألوّح بهما مرحباً ثم عدت إلى المهجع بسرعة ورحت أقلي بيضتين وأجهز قليلاً من الطماطم والشاي.

وصل وليد لاهثاً فاعتنقني بشدة وهمس في أذني معتذراً: يا أخي! أنا آسف أشد الأسف وأعتذر إليك...ابتسمت قائلاً: تعتذر على ماذا...؟ قال: على ما بدر مني عقب صدامي مع الرقيب إبراهيم...قلت: لا عليك...نحن أخوة لكن قل لي كيف وجدت السجن يا وليد؟

استمر وليد في التهام البيض والطماطم بنهم يرتشف الشاي ولم يجبني...

انتهى من طعامه سريعاً وشرع يحدثني قائلاً: يا ثائر! لا تقلق فنحن على ظهور الخيل...

قلت: لم أفهم...أنا أسألك عن السجن...

مسح فمه وأسند ظهره للجدار وأرجع رأسه للخلف قليلاً وأغمض عينيه نصف إغماضة وقال: قلت لك على ظهور الخيل... نحن فرسان في النهار سكارى في الليل.

-: لم أفهم ...يا أخي دعك من الثرثرة الفارغة ...قل لي كيف وجدت السجن...؟

اعتدل في جلسته وقال: يا أخي! نحن فرسان... نساق في الصباح الباكر إلى اسطبلات خيل قائد اللواء لنقتل ...

نفد صبري وقاطعته بعصبية قائلاً: يا ثرثار...سأدعك لوحدك وأخرج حالاً...

ضحك بخفة وقال بصوت رصين: يا أخي! تمهل...نحن نقتل الذباب على ظهور الخيل في النهار...ألسنا فرساناً إذاً...؟ أما في الليل فننام مكدسين في صفين متقابلين متعاكسين،أي قدما من يقابلني في النوم عند أنفي وقدميّ عند أنفه لنسكر من رائحة الجوارب العفنة...وإذا ما هبت نسمة من الباب ذو القضبان المتباعدة قليلاً حملت لنا رائحة البول الذي يتبوله الرفاق من بين القضبان عند المدخل فننتشي سكراً...

لم أتمالك نفسي ...ضحكت كثيراً وقلت: فلتحيا أيها الفارس السكّير...

أرجع رأسه للخلف مرة ثانية وأغمض عينيه بزهو قائلاً: حيّاك الله يا غلام...سوف آمر لك بعشرين ديناراً ذهبياً وثلاث جواري وعبدان أسودان.

قلت ضاحكاً: ذكّرتني بشاب سئل عن عمله فقال: أنا فنان...ولما سألوه عن أعماله الفنية، قال أنا أغني مع سميرة توفيق...أتعرفون أغنيتها الشهيرة "...صبّوا هالقهوة وزيدوها هيل...واسقوها للنشامى على ظهور الخيل..."، أنا واحد من الكورس الذي يردد "هيه " في نهاية كل مقطع غنائي...

انفجر وليد ضاحكاً وهو يقول: ما أشبه ذلك الفنان الموهوب بهذا الفارس السكير في دنيا العجائب...

قلت: يا أخي ! الأعجب تشخيص الشاعر للطغيان على لسان حيوانات الغابة، وذلك عندما ضاق الغاب بالليث والفهد فمشيا حتى دخلا غاباً حوى من الوحوش عدداً:

وأبصرا فيها القرد يحكم....يومئ باللحظ ولا يكلم!

منتفخ كالليث وهو قرد....منفرد بالحكم مستبد!

له بطانة بها الحمار ..... مدخر للرأى مستشار..!!
والبغل فيها لقرع الطبل.... والدب للألعاب فوق الحبل !
والضفدع المغنى الصدّاح.... والقط طاهي اللحم فى الأفراح!

ضحك وليد كثيراً وشرع يشد خيوط حذاءه العسكري...قلت إلى أين...؟

قال: دفعت رشوة لمساعد الشرطة العسكرية ليعطيني إذن ساعة لأشكرك بها، فلولاك يا أخي لوقعت في كارثة، ثم احتضنني مودعاً وعاد مسرعاً إلى سجنه.

بعد ثلاثة أيام تنفست الصعداء عندما حل موعد اختبارات اللواء وأصدر قائد اللواء عفواً عن وليد ورفاقه السجناء لينظموا إلينا من جديد.

عفو الشجعان واستسلام بطيحان

رفيق دربي وليد متوسّط القامة، نحيف البنية، حنطيّ البشرة، خفيف الظلّ، ذو عينين حادّتين واسعتين تنمّان عن ذكاء وطيبة، كان حلاّقاً ماهراً وتاجراً خبيراً رغم قلّة ذات يده، وفوق ذاك كان طالباً في السنة الثالثة في كليّة الحقوق، أوقف دراسته الجامعيّة والتحق بالجيش لتأدية الخدمة الإلزاميّة لسبب كنتُ أجهله.

توثّقت علاقتنا لدرجة أنّه إذا قدم الواحد منّا منفرداً بادره الناس بالسؤال عن الآخر. سألته مراراً عن سبب تركه الدراسة والالتحاق بالجيش قبل التخرّج فكان يغيّر الحديث بدهاء متجاهِلاً سؤالي. زاد فضولي لمعرفة السبب فأمسكت يده ذات مرّة وقلت: يا أخي إلى متى؟ ألسنا إخوة؟ هيّا أخبرني لِمَ تركت دراستك الجامعيّة والتحقت بالجيش؟ لا تتهرّب من سؤالي.
صمت قليلاً، تبسّم ثمّ نظر بعيداً حيث الوادي الممتدّ إلى قرية قريبة وقال: تلك قصّة يؤلمني تذكّرها، لكن لا بأس سأرويها لك باختصار:

أثناء دراستي الجامعيّة أسّست مشغلاً للخياطة شراكة مع ثلاثة من التجّار. لم يمنع فارق السنّ الكبير بيني وبينهم من أن أكون المدير والمؤسّس الفعليّ للمنشأة التي أخذت جلّ وقتي، كنت أمضي وقتاً طويلاً في العمل، راحت المنشأة تكبر بسرعة كبيرة، ولطيبة قلبي وثقتي المفرطة بالناس لم أوثّق شيئاً ممّا اتّفقنا عليه أنا وشركائي، فقد كانت المنشأة مسجّلة باسم أحدهم. وذات يوم اختلى شركائي الثلاثة ببعضهم البعض واتفقوا أن يخرجوني من المنشأة ويردّوا لي حصّتي من أساس رأس المال الذي نما كثيراً، صارحوني بالأمر فرفضت ذلك بشدّة واشتعل الخلاف بيننا، تكرّرت الاجتماعات ولم يكن لديّ من وسيلة للحصول على حقوقي في المنشأة، وأدركت اخيراً أنّهم سيأكلون حقّي. طلبت اجتماعاً أخيراً معهم لفضّ الشراكة، كان الثلاثة بانتظاري في قبو المنشأة، دخلت غرفة الاجتماع وأنا أخفي مسدّساً تحت سترتي الشتويّة السميكة. امتدّ الاجتماع لساعات وناقشتهم كثيراً، أثبتّ لهم حقّي فلم يقرّوا به، ذكّرتهم بالآخرة والخوف من الله فلم يُجدِ ذلك معهم شيئاً. وقفت بهدوء وتوجّهت نحو الباب، أحكمتُ إغلاقه وسط اندهاشهم، أخرجت مسدّسي بهدوء وجهّزته للإطلاق، وضعت أصبعي على الزناد فارتعدوا واصفرّت وجوههم، رفعوا أيديهم للأعلى بارتعاش، متوسّلين راجين ألاّ أرتكب حماقة، همّوا بتقبيل يديّ فحذّرتهم من الاقتراب منّي، راحوا يقسمون بالله أنّهم سيؤدّون حقّي كاملاً وزيادة، وأنّهم كانوا مخطئين، وأنّهم وأنّهم..

صرخت بصوت عالٍ: كفى، اسمعوا منّي ما أريد قوله.

ساد الصمت والترقب على القاعة، وراح العرق يتصبّب من جباههم وعلامات التوجّس على وجوههم المرتعدة. قلت بهدوء: تعلمون أنّي شابّ أعزب، يعني (لا ورائي ولا قدّامي) كما يقولون، ولم أعد أملك شيئاً ذا قيمة ، وأنتم تعلمون أنّ لي حقاً وتقرّون به الآن خوفاً، وأعلم أنّكم لن تؤدّوه إن خرجتم من هنا أحياء، وبإمكاني الآن

أن أرسلكم للمبيت في المقبرة لتكملوا اجتماعكم، فغروا أفواههم وزاد رعبهم. أكملت قائلاً: لكن أتدرون ما الذي يمنعني من فعل ذلك؟

لم ينبس أحدهم بحرف، أردفت: ما يمنعني إلاّ خوفي من الله، أنا أفضّل أن ألقى الله مظلوماً خير من أن ألقاه قاتلاً، لكنّي أسأله -تعالى- أن ينتقم منكم عاجلاً غير آجل.

أنهيت جملتي الأخيرة ولم أقل كلمة بعدها، بل دسست مسدّسي تحت سترتي ثمّ فتحت الباب وخرجت.

أنهى وليد حكاية مظلمته تلك وأخذ نفساً عميقاً وتمتم بعينين مغرورقتين: "حسبنا الله ونعم الوكيل".

ربّتّ على كتفه قائلاً: يا وليد أنت رجل مظلوم، وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: "ما عفا رجل عن مظلمة إلاّ زاده الله بها عزّاً".

تهلّل وجهه ومسح دموعه على استحياء، وقال: جزاك الله خيراً على هذه البشارة.

مرّ شهر على روايته لحكايته المؤلمة، وذات يوم جاءت برقيّة مستعجلة للواء تطلب السماح لوليد بالمغادرة إلى بيته لأمر ضروريّ، كانت البرقيّة مرسلة من قيادة المنطقة الشماليّة. اشتدّ بنا القلق ورافقته إلى مكتب قلم الكتيبة فسلّموه إجازة وطلبوا منه توقيعها من قائد الكتيبة ليغادر لمدّة ثلاثة أيّام فقط.

افتقدته كثيراً ومرّت الأيّام الثلاثة عليّ ثقيلة، وفي صبيحة اليوم الثالث وقبيل الاجتماع الصباحيّ بقليل عاد وليد من سفره حزيناً، بادرته بالسؤال قلقاً: ما الأخبار؟ عسى الأمور على ما يرام؟ نظر إليّ بحزن وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، لقد كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، والحمد لله أنّي أدركته قبل أن يسلم روحه لله.

قلت باندهاش وقلق: من؟ والدك؟

قال: لا، شريكي بالمنشأة الحاجّ خليل.

قلت: ولماذا دعاك؟ لماذا ذهبت إليه؟ ماذا يريد؟

قال بهدوء: يطلب منّي السماح والعفو.

قلت: وماذا قلت له؟ فليردّ لك حقّك أوّلاً.

قال: مهلاً، ماذا أقول لرجل على فراش الموت؟ سامحته، وأسأل الله أن يعفو عنه.

صمتٌ مبهوتاً ولم أتكلّم.

ضجّت الكتيبة بمكبّرات الصوت تدعونا للاجتماع فتوجّهنا نحو الساحة بصمت.

في نهاية اليوم عاود وليد رواية تفاصيل لقائه الأخير مع شريكه المغادر إلى عالم الآخرة. سألته: هل كان الرجل مريضاً قبل ذلك؟

قال: لم يكن مريضاً لدرجة تنبئك بموته القريب، لكنّه رجل تجاوز الستّين بقليل. قلت: لعلّه أوصى أولاده بأن يردّوا لك حقّك؟

قال: ربّما، لكنّي لا أدري إن كان فعل ذلك أم لا، دعك من ذلك وأخبرني هل عاود النقيب يحيى تحذيرك من الصلاة؟

قلت: لم يرني أحد، فأنا لا زلت أتخفّى خلف الصخرة لتأدية الصلاة ما أمكن.

قال: نسيت أن أخبرك أنّ العقيد "قائد الكتيبة" سألني عن عملي قبل التحاقي بالجيش وهو يوقّع على إجازة المغادرة، فأخبرته أنّي كنت حلاّقاً فطلب منّي أن أكون حلاّقه الخاصّ ثمّ سألني عن مدرّس للغة الإنجليزيّة فأخبرته عنك.

قلت: وماذا يعني ذلك؟ لو كان جادّاً لطلبني لمقابلته.

قال: طبعاً يعني الكثير، ولعلّه نسي ذلك وسيعود للبحث عنّا، سيكون بحاجة لخدماتنا.

بينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث دخل علينا حاجب العقيد الخاصّ سائلاً عن الرقيب وليد، قفز وليد من السرير الذي كنّا نجلس عليه وقال: ما الأمر؟ خيراً إن شاء الله؟

قال الحاجب: سيادة العقيد يطلب منك أن تأتي لمكتبه حالاً، مصطحباً معك عدّة الحلاقة.

تهلّل وجه وليد وغمزني بطرف عينه قائلاً بصوت منخفض: جاء الفرج يا ثائر.

لبس بزّته العسكريّة على عجل وأخرج عدّة الحلاقة التي أحضرها عندما عاد من إجازته وخرج مسرعاً.

قلت في نفسي وقد ازدحمت عليّ خواطر كثيرة: أيّ فرج يقصد؟ أن نُعفى من درس الرياضة المسائيّ أم نمنح إجازة؟ ...

تمدّدت على سريري منتظراً أن يغفوَ الرفاق ولا سيّما العريف سمير، لأتمكّن من التسلّل إلى المصلّى السرّيّ خلف الصخرة لتأدية صلاة العشاء قبل أن يشتدّ البرد

ويلسع جبيني صقيع التراب الرطب وأنا ساجد، قلت في نفسي: صحيح أنّ سجودي خفيف كنقرة الديك لكنّه ممتع ويبعث الطمأنينة في نفسي وأنا أنفض ذرّات التراب الملتصقة بجبيني بعناية خشية أن يلحظها العريف سمير كدليل على جريمتي.

عاد وليد بعد ساعة فرحاً، وبادرني قائلاً وهو يرتّب عدّة الحلاقة وينظّف مقصّه من بقايا شعر أشيب: أبشر يا صاحبي.

قفزت من السرير وقلت: ها، ما وراءك؟

قال: وافق على منحي أنا وأنت مكاناً نستقرّ فيه بعيداً عن المهجع.

أمطرته بالأسئلة: أين؟ كيف؟ متى سننتقل إليه؟ كيف حصل ذاك؟ أليس ممنوعاً أن نغادر مهجع السريّة؟

قال بابتسامة زهوّ ماكرة: هيه، مهلاً يا صاحبي، سأقصّ عليك التفاصيل غداً.

قلت: أرجوك، هيّا اقترب منّي وأجب عن أسئلتي.

قال: لكن بشرط.

قلت: حاضر مهما يكن شرطك، أنا لا أستطيع الانتظار حتّى الصباح.

قال: شرطي أن تعلّمني كلمة السرّ التي تستخدمها لإخافة كلاب القمامة الضالّة التي تعترض طريقنا دوماً، فإن أشبعتنا عواء أخرستها صيحة واحدة منك.

ضحكت قائلاً: لك ذلك.

قال: دعني -إذاً- أغسل يدي ثمّ آتيك لأقصّ عليك الخبر.

راح وليد يتشاغل عنّي ليثير فضولي أكثر، وكعادته المرحة تنحنح وبدأ بمقدّمة روتينيّة معتادة لخطب الجمعة، فحمد الله وصلّى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثمّ ترضّى عن الخلفاء الأربعة ثمّ أوصاني بتقوى الله... لم أطق صبراً فصرخت في وجهه: هيه... أرجوك كفى... إن لم تتوقّف عن سماجتك سأتركك حالاً....

كتم ضحكته بصعوبة ثمّ قال: يا أخي! تعرف ثرثرة الحلاّقين ولاسيما أنا، لقد تكلّمت كثيراً مع العقيد فانشرح لحديثي وراح يتجاذب معي أطراف الحديث وتبيّن لي أنّه رجل بسيط على عكس ما كنت أتوقّع ولعلّه يخفي صلاته مثلنا.

قلت: وكيف عرفت ذلك؟

قال: بدأت الحلاقة ببسم الله لأختبر ردّة فعله فأحسست بارتياحه لذلك، وقال لي مازحاً: يا ابني! أنت تذبح أضحية أم تحلق لقائدك؟

تبسّمت وقلت: عفواً سيادة العقيد! يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلّ عمل لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر" لم يعلّق على ذلك مطلقاً، بل تمتمت شفتاه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

- : هذا خبر مفرح، ثمّ ماذا؟
- : سألته عن مستوى أولاده في الدراسة وكانت فرصة مناسبة لتذكيره بك.
- : وماذا قال؟
- : طلب منّي أن أذكّره بك لاحقاً، وهناك شيء آخر أهمّ من كلّ ما ذكرته لك.

قلت بشغف: أرجوك لا تطل الحديث، لقد تأخّرت عن صلاة العشاء.

قال: بعد أن انتهيت من حلاقة شعره سألني إن كنت مرتاحاً، فقلت له:

الصراحة يا سيّدي أنا وزميلي مدرّس اللغة لسنا مرتاحين. قال باستغراب: وما الذي يضايقكما؟

قلت له: سيّدي! أنا مازلت طالباً في المرحلة الجامعيّة، أنا في السنة الثالثة وزميلي مدرّس الإنجليزيّة يكمل دراسته، ونحن لا نستطيع الدراسة وسط ثلاثين عسكريّ في المهجع.

قال: وما المطلوب؟

قلت: سيّدي! إن أمكن اسمح لنا بالسكن في الغرفة المحفورة في سفح الجبل خلف قيادة الكتيبة.

قال وهو يبتسم: يا ابني! أتعرف أنّ تلك الغرفة ملجأ قائد الكتيبة من تأثير الأسلحة الكيماويّة.

قلت: سيّدي! لن تحصل حرب بعد الآن.

نظر إليّ باستغراب فأردفت قائلاً: سيادة الزعيم المفدّى -أطال الله في عمره- يُجري محادثات سلام مع العدوّ، سلام الشجعان سيّدي، سلام الشجعان، وسنبقى دولة صمود كما قال سيادته.

قطّب العقيد حاجبيه ونظر إليّ بحدّة قائلاً: أتعرف أنّك رجل ثرثار؟! هيّا انصرف من هنا فوراً.

أدّيت تحيّة الانصراف فردّ عليّ تحيّتي ببرود ملحوظ ثمّ ألحقها بقوله: غرفة الملجأ تحتاج لإصلاح، حاول أنت وزميلك إصلاحها ثمّ انتقلا إليها.

لم أتمالك نفسي من الفرح فاحتضنت وليداً مقبّلاً جبينه بحرارة وقلت: سلّم الله فمك يا أجمل ثرثار.

ضحك قائلاً: لا تنس الشرط الذي اتّفقنا عليه.

قلت: لك ذلك.

فأووا إلى الكهف..

انتهت دروس اليوم الروتينيّة فتوجّهنا أنا ووليد من فورنا نحو سفح جبل وردان حيث الغرفة، بدا لنا من بعيد سقف اسمنتيّ لغرفة محفورة في بطن السفح الأجرد، لا يرتفع عن سطح الأرض إلاّ مسافة شبرين أو ثلاثة، تُركت فيها كوّتان متناظرتان للتهوية بمستوى الأرض، تطلّ على اللواء كاملاً، تبعد مئتي متر عن مهجعنا، يفصلها عنه وادٍ ضيّق صنعته مياه الأمطار الهابطة من أعلى جبل أبي السعود الذي تتمركز على قمّته كتيبة الدفاع الجوّيّ المستقلّة، على قمّة جبل وردان المقابل له تجثم كتل صخريّة ضخمة يطلق عليها اسم قلعة وردان الأثريّة، يمنع الاقتراب منها بأمر قائد الفرقة التي يتبع لها لواؤُنا، كان التهامس دوماً يدور حول الآثار التي تحتويها تلك القلعة التاريخيّة والتي سيطر عليها قائد الفرقة نفسه وراح ينقّب فيها.

اقتربنا من الدرج الصخريّ المؤدّي إلى الباب، أضاء وليد مصباحه اليدويّ وهبطنا الدرجات الستّ بحذر. بدا لنا المدخل كفم كهف مهجور، لا أدري كيف خطر على بالي قوله تعالى: "فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا". خفضنا رؤوسنا قليلاً ودخلنا الردهة المظلمة، لم ألبث فيها إلاّ يسيراً، كدت أختنق من شدّة الرطوبة والعفونة، خرجت

مسرعاً لاستنشاق الهواء، ناداني وليد من الداخل بصوت كأنّه ينبعث من قبر معتم: يا أخي ما لك؟ هيّا عد إليّ...

رجعت مُكرهاً وقلت: يا أخي! كيف لبشر أن يسكن هذا المكان؟

قال: لا عليك سنصلحها ونصنع لها باباً، ونمهّد أرضها ونستجرّ إليها الكهرباء.

قلت مجاملاً: خيرٌ إن شاء الله، لكن ماذا نفعل بحجارة الجدران المتداعية والشقوق الغائرة بينها، ألا تعتقد أنّها مسكن للعقارب والجنّ. ما أن قلت كلمتي تلك حتّى أمسك بيدي وجرّني إلى الخارج مرتعداً، نظر إليّ وقال بدهشة: قلت لي جنّ؟! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ساد الصمت بيننا قليلاً وغرقنا بالتفكير، قلت: لا حلّ لنا إلاّ بإصلاحها، علينا ألاّ نفوّت الفرصة.

قال: والجنّ، والعقارب؟

قلت: دع ذلك عليّ ولنبدأ بالإصلاح.

مرّت خمسة أيّام كاملة نغتنم الفرص بين الدروس الروتينيّة وبعد درس الرياضة، نلتقط ما تقع عليه أيدينا من أخشاب صناديق الذخيرة الفارغة لنصنع باباً للغرفة الكهف، وإذا ما حانت فرصة مواتية تسلّلنا عبر طريق الجبل إلى مدينة السنانيّة القريبة، لنحضر ما يلزمنا من المسامير والمعدّات التي تلزمنا في نجارة الباب، نلقي السلام في طريقنا على حرّاس خيمة الدفاع الجويّ، نتجاذب معهم أطراف الحديث قليلاً ثمّ نتابع سيرنا، وإذا ما حلّ المساء عدنا متعَبين مستبشرين بقُرب الخلاص من المهجع المكتظّ. لم يكن يشغل بالنا إلاّ شيء واحد، إيصال الكهرباء إلى الغرفة الكهف، فهي بعيدة عن المهجع وعن قيادة الكتيبة كذلك.

في مساء اليوم السادس كان كلّ شيء قد اكتمل تماماً، أصبحت الغرفة الكهف صالحة للسكن بأرض ممهّدة نظيفة وباب خشبيّ سميك متواضع، ونافذتين صغيرتين للتهوية، وسريرين ولوازمهما، وموقد غاز متنقّل، وأوانٍ للطبخ، ولم يعد ينقصنا إلاّ إنارتها. جلسنا في أرض الغرفة منهكين بعد وضع اللمسات الأخيرة وغرقنا في التفكير، من أين نأتي بالكهرباء، وقف وليد فجأة وقال: وجدتها! رفعت بصري إليه وقلت: ماذا وجدت يا أرخميدس؟

خرج مسرعاً وقال: الحق بي، الحق بي.

قمت بتكاسل وصعدت الدرجات الستّ نحوه. كان يجلس أمام الغرفة على بعد ستّة أمتار، يمسك بيده كبلاً كهربائيّاً غليظاً.

قال: انظر، هذا كبل الكهرباء الممتدّ نحو كتيبة الدفاع الجويّ، يمرّ من أمام غرفتنا، سنستجرّ منه الكهرباء حالاً.

تأملته ملياً ثمّ رحت أتبع ببصري الكبل الكهربائيّ الثخين الذي يتلوّى بين الصخور كأفعى سوداء كالحة متسلّقاً قمّة الجبل، حيث تزدحم صحون الرادارات التي ملّت من الدوران في كلّ الاتجاهات منذ عشرين سنة وهي تبحث عن طائرة معادية بلا جدوى. رجعت ببصري نحو الوادي حيث ينحدر الكبل بين الشعاب وصولاً إلى أعمدة الكهرباء الخشبيّة في أقصى شمال اللواء. التفتُّ إلى وليد قائلاً: أتعرف من هو بائع الأرض السليبة؟

نظر إليّ مستغرباً من سؤالي...

أردفت قائلاً: إنّه من يسرق الكهرباء من هذا الكبل.

علا وجهه الامتعاض فقال: يا أخي دعك من السياسة الآن وأحضر لي المشرط واللاصق وسلك الكهرباء الأبيض من الداخل.

قلت: إذاً، أنت بائع الأرض السليبة.

قال: وفلسطين وجنوب لبنان أيضاً !!

ضحكت عالياً وهبطت الدرج وعدت بما طلبه.

تربّع وليد على الأرض وأمسك المشرط وانكبّ يشقّ الغلاف الخارجيّ للكبل بحذر، طالباً منّي تنبيهه فوراً إن قدم أحد نحونا. كان كطبيب حاذق يجري عمليّة جراحيّة خطرة للكبل الثخين...

انتهت العمليّة بنجاح وانبعث ضوء المصباح في سقف الغرفة، أكمل ما تبقّى من العمليّة على عجل ثمّ حفرنا في التراب ودفنّا عقدة الوصل وعدنا نتراقص فرحاً.

تنفّسنا بعمق، غمرتنا الفرحة وتبادلنا نظرات النصر والزهوّ، رحنا نتأمّل أرجاء غرفتنا، أو قل كهفنا ذي الجدران السوداء والشقوق الغائرة بين حجارتها المتباينة حجماً وشكلاً.

نظر إليّ وليد وقال: والآن جاء دورك يا صاحبي.

قلت: أيّ دور؟ ماذا تقصد؟

قال بصوت أقرب للهمس: الجنّ، العقارب.

قلت: هذه سهلة بعون الله تعالى.

وقفت في وسط الغرفة ورحت أردّد رقية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أعوذ بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة".

راح وليد يتمسّح بي مازحاً...

قلت: الجنّ...بقي الجنّ...

التصق بي كطفل خائف مردّداً: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

تنحنحت مرّتين ومسحت وجهي، وبصوت رزين مهيب قلت: أيّها الجنّ من سكّان هذا المكان، اسمعوا: لن تروا منّا إلاّ ما يسرّكم.

كدت أنفجر ضاحكاً لشدّة دغدغة أصابع وليد المرتجفة بخاصرتيّ وهو يتشبّث بي بقوّة.

التفتّ إليه وقلت: يا أخي! انتهينا فدعني... هيّا نهيّئ أسرّتنا للنوم.

قال: هل انتهى الأمر برأيك؟

قلت: إن شاء الله تعالى.

قال: هل الجنّ هنا كفرة أم مسلمون؟

قلت ضاحكاً: كفرة أسلموا منذ أسبوع، ثمّ أكملت: يا أخي أتراني التقيت بهم أم تراني صهرهم؟ يا أخي كل ما عليك أن تقرأ آية الكرسيّ وأواخر سورة البقرة قبل نومك ثمّ تتوكّل على الله تعالى.

راح يهيّئ سريره للنوم ويهزّ رأسه متمتماً: من يدري، أنتم أهل الريف لكم علاقات مصاهرة مع الجنّ، هكذا قال لي جدّي رحمه الله تعالى ذات يوم.

****

إن مع العسر يسراً

استيقظنا فجراً، توضّأنا وصلّينا الفجر جماعة ثمّ خرجنا لاجتماع الكتيبة الصباحيّ، بدأ بعده درس الرياضة الذي استمرّ حتّى السابعة والنصف صباحاً، عدنا إلى الغرفة الكهف مسرورين، وبينما نحن نتناول إفطارنا دخل علينا حاجب العقيد، رفع يده بالتحيّة قائلاً: احترامي حضرة الرقيب ثائر! قائد الكتيبة يطلب منك الحضور لمكتبه حالاً.

تركت طعامي وأسرعت خلفه قاصداً مكتب العقيد أحمد فصدفني في طريقي النقيب يحيى قائد السريّة، حيّيته فبادرني بالقول: إلى أين؟

قلت: سيادة العقيد يطلب منّي الحضور لمكتبه.

لم يعجبه ذلك لكنّه تابع سيره ولم يتكلّم.

قرعت باب المكتب، جاء صوت العقيد أحمد من الداخل: يطلب منّي الدخول،

ضربتُ رجلي بالأرض بقوّة رافعاً برشاقة يداً مبسوطة للإمام إلى جانب خدّي الأيمن قائلاً: احترامي سيّدي.

قال: أنت الرقيب مدرّس اللغة الإنجليزيّة؟

قلت: نعم سيّدي.

قال: تجهّز للذهاب معي إلى البيت بعد الظهر للوقوف على مستوى الأولاد باللغة الإنجليزيّة.

قلت: حاضر سيّدي، لكن عندنا درس رياضة مسائيّ.

تبسّم قائلاً: قلت لك استعدّ للذهاب معي، أفهمت؟ هيّا انصرف.

قلت وأنا أرفع يدي بتحيّة الانصراف: حاضر سيّدي.

انتهت الدروس اليوميّة وعدنا ثانية إلى غرفتنا، توضّأنا وصلّينا الظهر وأعددنا الشاي، رشفت رشفتي الأولى من الكأس فدخل علينا حاجب العقيد مسرعاً، وقال: حضرة الرقيب، سيادة العقيد ينتظرك، أرجوك هيّا بسرعة.

لبست بزّتي العسكريّة وتوجّهت نحو مكتب العقيد، كان يجلس في سيّارته يهمّ بالانطلاق، حيّيته فأشار إليّ بالصعود إلى السيّارة حالاً.

انطلقت بنا السيّارة باتجاه مدينة السنانيّة حيث بيته. ظلّ العقيد صامتاً طوال الطريق مقطّب الحاجبين كعادته، يطمئن بيده على خصلة الشعر الطويلة التي تستر صلعته بين الحين والآخر، وذلك كلما عبثت بها نسمة مباغتة من نافذة سيارة الجيب، يدندن بأغنية بدوية ويمسد شاربيه الأشيبين بسبابة يده اليمنى وإبهامها فترتسم علامات الرضى على وجهه الأسمر النحيل، يرمقني بنظرة جانيبة صامتاً فأبادله بنظرة سريعة ثم أتنحنح بخفة وألوذ بالصمت.

توقفت السيارة بعد نصف ساعة أمام منزل متواضع في الحيّ العسكريّ شمال مدينة السنانية، ترجّلت صامتاً ودخلنا البيت. استقبلتنا زوجته السمينة الطويلة مرحّبة وتدافع أولاده نحوه فضمّهم بحنان وانفرجت أساريره، أشار لي بالجلوس على كرسيّ خشبيّ في الصالون، غاب قليلاً وعاد مرتدياً بيجاما رياضيّة زرقاء وجلس على كرسيّ بجانبي وراحت زوجته تجهّز مائدة الطعام.

فرشت صفحة كبيرة من جريدة يوميّة قديمة على الطاولة، ثمّ وضعت عليها طبقاً من الأرزّ تعلوه غيمة من البخار، وآخر من السبانخ وصحنين من حامض الفاصولياء. همس العقيد قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم، وشرع بتناول الطعام فشعرت بطمأنينة نفسية وخفّ توتري كثيراً. كنت آكل على استحياء وأحاول كتم صوت مضغ الطعام في فمي وأرفع ملعقة الأرز إلى فمي بحذر باد. لفت نظري جزء من مقولة صغيرة عن الآثار على صفحة الجريدة المبسوطة أمامنا على الطاولة، دفعت الطبق قليلاً عن تتمتها ورحت أضع في فمي لقمة أمضغها على مهل ثمّ أعاود قراءة ما ظهر لي من المقالة. انتبه العقيد أحمد لتباطئي بالأكل ولاحظ انشغالي بالقراءة، قال بنبرة حادّة بعض الشيء: دعك من القراءة الآن وأكمل طعامك.
قلت: حاضر سيادة العقيد.

تبسّم بلطف وعلت نبرته قائلاً: أبو زهران ...أنا هنا أبو زهران.

شعرت بمزيد من الراحة فقلت: حاضر سيّدي.

رمقني بابتسامة خفيفة وانهمك بتناول الطعام.

نظرت إليه ثمّ قلت: قد يصعب عليّ ذلك، فأنا عسكريّ.

دسّ لقمة كبيرة من السبانخ في فمه وقال بصوت غليظ: كما تريد.

قلت خجلاً وبصوت مرتجف: الحقيقة يا سيادة العقيد أبا زهران كنت أفكّر بهذه المقالة، وأشرت إلى الجريدة أمامي.

قال: ما بها؟

قلت: ما ضرّ لو فهمناها فهماً قرآنياً.

انبسطت أساريره، توقّف عن الطعام قليلاً وقال: لم أفهم يا ثائر، وكيف ذاك؟

قلت: يقول الله سبحانه: (قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ) وأكملت قائلاً: طلب منّا ربّنا – سبحانه- أن نسير في الأرض بكلّ الطرق لنعتبر من مصير الأمم التي خلت من قبلنا، ولعلّ من السير في الأرض القراءة في التاريخ وعلم الآثار، حتّى أن كلمة المجرمين هنا لها دلالتها.

قال بابتسامة فضول ودعابة: وما دلالتها يا شيخنا الرقيب؟

قلت: سيادة العقيد! الجَرْمْ (بفتح الجيم وتسكين الميم) يعني قطع الثمر من الشجرة قبل نضجها. فكأنّ المجرمين بصدّهم عن سبيل الله تعالى يقطعون ثمرة الهدى والرشاد عن شجرة الحقّ خوفاً من أن يستفيد منها أحد.

قال مستغرباً: لم أفهم ما ترمي إليه.

وجدتها فرصة مناسبة وتجرّأت قائلاً: أيعقل يا سيادة العقيد أن نمنع من الصلاة في الجيش؟ أليست الصلاة ثمرة لشجرة الحقّ؟ ومن يمنعها يجرمها عن أصلها ولا يستفيد منها هو ويحرم الآخرين منها.

توقّف عن الطعام وحدّق بي بعينين حادّتين وقال: من منعك عن أدائها؟

قلت: النقيب يحيى قائد السريّة، بل توعّدني إن عدت للصلاة.

أرجع رأسه للخلف بهدوء مقطّباً جبينه ثمّ ضرب طاولة الطعام بقبضته فتطاير بعض الأرزّ من الطبق قائلاً بغضب: لعنة الله..، لعنة الله..

تجمّد الدم في عروقي، أكمل بصوت منخفض: لعنة الله على هكذا رجل...

ساد الصمت على المكان وبدا عليّ الارتباك وتوقّفنا عن الطعام. أخذ العقيد نفساً عميقاً وقال بعد تفكير: ليس باليد حيلة، عليك أن تتخفّى بصلاتك مثلي، وإلاّ ستعرّض نفسك

إلى ما لا تحمد عقباه، فالنقيب يحيى من طائفة الزعيم وكلامه مسموع عند ضابط أمن اللواء.

تنفّست الصعداء وقلت: هو كذلك، والحمد لله أصبحت غرفتنا جاهزة وانتقلنا إليها وبدأنا نؤدّي صلاتنا بأمان فجزاك الله خيراً يا سيادة العقيد.

قال: يا ثائر توخّى الحذر، النقيب يحيى رجل خطير، قد يلصق بك تهمة ترمي بك خلف الشمس، أمّا أنا فسأعاملك حسب النظام العسكريّ في اللواء، وستخرج بإذن رسمي من قِبَلي كلّ يوم بعد الظهر على أن تعود في اليوم الثاني قبل الاجتماع، عليك أن تساعد الأولاد في دراستهم وإذا ما انتهيت فلك الخيار بين المبيت في العاصمة عند أحد تعرفه أو الرجوع ليلاً للمبيت في اللواء، لكن حذارِ من التأخّر عن الاجتماع الصباحيّ.

شعرت بارتياح عميق وشكرته كثيراً. انتهينا من طعامنا ونادى أطفاله لأبدأ بالدرس.

الرشوة المباركة

عدت مساءً إلى اللواء متسلّلاً من طريق الجبل، توجّهت إلى الغرفة الكهف مسروراً وكان وليد بانتظاري وقد جهّز طعام العشاء. قصصت عليه ما جرى بيني وبين العقيد أحمد فسرّ كثيراً لما سمع وقال: إذاً كان الرجل كما ظننت، فهو على عكس ما ينبئك مظهره الصارم.

قلت: تماماً، لدرجة أنّي لم أكن أصدّق أنّه هو ذاك الذي يقف صباحاً كلّ يوم مشدود القوام، مقطّب الحاجبين يرفع يده بالتحيّة للعلم بعبوس عسكريّ مهيب.

مرّ شهر كامل وأنا أتردّد إلى بيت العقيد سالكاً طريق الجبل ذهاباً وإياباً حتّى أتعبني الطريق المُوحش. قلت في نفسي سأبحث عن صديق أو قريب في العاصمة علّني أجد عنده متنفّساً خارج الحياة العسكريّة الرتيبة، أنام عنده وأعود صباحاً إلى اللواء.
تذكرت صديقاً لي في المرحلة الابتدائية. قصدت العاصمة واتصلت بأخي طالباً منه أن يسأل لي في القرية عن عنوان محمود الذي لم أره منذ الصغر، وكلّ ما أعرفه أنّه دخل سلك الشرطة قبل أن يتمّ الثانويّة العامّة، أرشدني أخي بعد مدّة إلى بيت قريبنا محمّد الذي يعمل شرطيّاً في العاصمة أيضاً، وبعد بحث طويل في حيّ قديم وصلت

بيت محمّد، رحّب الرجل بي كثيراً وفرح لرؤيتي ...طلبت منه أن يرشدني إلى بيت محمود. قال: ليس قبل أن نحتسي الشاي ونرتاح قليلاً.

لم أطل الجلوس وخرجنا على درّاجته الناريّة قاصدين بيت محمود.

كان محمود يسكن حيّاً جنوبيّ العاصمة، لم يكن في ذاكرتي لمحمود إلاّ صورة ذلك الطفل النحيف الأسمر، بريء النظرات، طويل القامة يرتدي الزيّ المدرسيّ القديم في الصف الثاني الابتدائيّ.

وصلنا حيّ الزهور العشوائي بعد نصف ساعة، انغمسنا في زحام شوارع ضيّقة متقاطعة تغصّ بالباعة المتجوّلين وتضجّ بأصوات الناس، وفي شارع فرعيّ يضيق آخره كثيراً توقّفنا أمام دار أفقيّة البناء من طابق واحد، طرقنا الباب فخرج علينا شابّ طويل القامة، رشيق الحركات يرتدي بيجاما سوداء ثمينة وقميصاً قطنيّاً ناصع البياض. تفاجأ بنا، حدّق بي قليلاً ثمّ عانقني مرحّباً بحفاوة شديدة.

كان محمود يسكن غرفة من دار متواضعة مع شرطيّ آخر، سرّ كثيراً لرؤيتي واستعدنا ذكريات الطفولة وأدهشتني ذاكرته الحديديّة، إذ لم ينس أدقّ التفاصيل؛ (المدرسة، المدرّسين، الرفاق، المقاعد حتّى أماكن الجلوس...)

استأذن محمّد وعاد لبيته وأخذ منّي موعداً لزيارته يوم السبت المقبل.

جلسنا أنا ومحمود نتجاذب أطراف الحديث، سألته عن سبب تأخّره بالزواج فقال لي: كما تعلم، الحياة في العاصمة مكلفة وراتبي لا يكفي لإعالة أسرة، لكنّي الحمد لله بدأت الآن بالتوفير وتحسّن الحال وسأتزوّج قريباً -بعون الله– من فتاة تعرّفت عليها مؤخّراً.

قاطعته قائلاً: تقول لي تحسّن الحال، فهل زادت الحكومة مرتّبك؟

أجاب ضاحكاً: بالطبع لا، الحمد لله لا زيادة جديدة على مرتّبات الموظّفين.

قلت: عجباً لك، أراك تحمد الله أن لا زيادة على المرتّبات.

قال: يا صديقي! نخشى الزيادة لأنّها - في واقع الأمر- تعني تخفيض الراتب لا زيادته، يزيد المرتّب اليوم فتقفز الأسعار غداً، يعطوننا باليمين مئة ويسرقون بالشمال مئة وخمسين، لكنّي بدأت الخدمة في مخفر جديد في ضاحية شمال العاصمة.

قلت: وماذا يعني ذلك؟

قال: بصراحة نحصّل ضعف راتبنا. تلكّأ قليلاً ثمّ قال: يعني كما تعلم، هذا الحال في بلدنا.

قلت: تقصد رشوة.

قال: نعم رشوة. تبسّم متابعاً كلامه: "إكراميّة، رشوة "، سمّها ما شئت.

صدمت بكلامه، سكتّ قليلاً وقلت: أتصلّي يا محمود؟

- : أحياناً، أقصد أنّي لا أؤدّي الصلوات الخمس بانتظام.
- : ألا تعلم أنّ الرشوة حرام شرعاً ؟

قال: أعلم ذلك، ولكن ما باليد حيلة يا أخي، قل لي - بالله عليك - ما العمل؟ كيف لي أن أتزوّج؟ كيف أعيل أسرة؟

ساد الصمت من جديد، تبسّم قائلاً: أراك سكتّ يا صاحبي؟

قلت: وماذا يفعل من يتقاضى نفس مرتّبك من زملائك المتزوّجين؟

قال: يعمل معظمهم باعة متجوّلين في السوق الرئيسيّ بثياب مدنيّة بعد دوامهم.

قلت: وما يمنعك أن تفعل مثلهم؟ أظنّ أنّ لديك متّسعاً من الوقت لعمل إضافيّ بعد انصرافك من العمل.

فكّر طويلاً وقال: معي قليلٌ من المال المدّخر، سأحاول، سأحاول.

قلت بصوت منخفض وأنا أندسّ في فراش هيأه لي: حقّاً صدق من قال يا محمود:

ترك اللصّ لنا ملحوظة تحت الحصير

جاء فيها:

لعن الله زعيمنا والوزير

لم يُبقيا لنا شيئاً نسرقه

إلاّ الشخير.

تبسم محمود قائلاً: أخشى أن يسرقوا منّا حتى النوم والشخير يا صاحبي...

استيقظت مبكّراً، تناولنا فطورنا ولبست ثيابي للعودة إلى اللواء، ودّعني محمود عند الباب طالباً منّي العودة كلّ يوم إن أمكنني ذلك فقلت له: يا محمود سأعود لكن بشرط.

قال ضاحكاً: ما شرطك؟

قلت: أن تسلّمني لدى عودتي أوّل رشوة تتلقاها.

قال: لك ذلك، المهمّ أن تعود.

غادرت العاصمة بالحافلة العسكرية التي تنقل عسكرييّ اللواء إلى كتائبهم كل صباح.

كان وليد ضجراً، فلمّا وقعت عينه عليّ قال: يا أخي أين كنت؟ لن أسمح لك بالمبيت في العاصمة وأن تتركني لوحدي في هذه الغرفة الموحشة.

قلت: معك الحقّ يا أخي، لكن اسمح لي بالمبيت في العاصمة كلّ ثلاثة أيّام، فالعودة كلّ يوم عن طريق الجبل متعبة كما تعلم.

في اليوم الثالث أنهيت دروسي في بيت العقيد أحمد وتوجّهت إلى حيّ الزهور حيث يسكن محمود.

سرّ بعودتي ورحّب بي كثيراً وكان قد جلب كثيراً من الفواكه والحلويّات، جلسنا قليلاً ثم بادرته بالسؤال عن نيّته العمل في السوق بعد الدوام فقال: لقد اشتريت شيئاً من الحقائب النسائيّة لبيعها في السوق القديم بعد انصرافي من العمل عصر كلّ يوم.

قلت: والرشوة؟

دسّ يده في جيبه ضاحكاً وسلّمني مبلغاً من المال.

أمضينا ليلة جميلة تحاورنا فيها كثيراً، كان محمود دقيق الملاحظة لمّاحاً، حرّ التفكير محباً للقراءة، لكنه كان ينتقد بشدة العكوف على التراث وتقديسه والتغني بالماضي وتمجيده ويرى أن ذلك مقصود لتخدرينا عن الواقع الأليم الذي نعيشه. وفي نهاية نقاشنا الحاد سكت قليلاً ثم التقط قلماً وسطرّ في دفتر إلى جواره: "عليك أن تكون كالنهر، لا تنسى منبعك (تراثك) وتعرف مجراك (واقعك)، وتستشرف مصبّك (مستقبلك)". تأملها قليلاً ثم أغلق الدفتر وقام يحضر لنا طعام العشاء.

كانت ليلة ثرية بالأفكار تخللها الكثير من المرح...عدت في الصباح بعدها إلى اللواء وأنا أفكر بعبارة محمود التي كتبها في دفتره وأعيدها في ذهني...

بعد ثلاثة أيّام أخرى أنهيت دروسي في بيت العقيد أحمد باكراً ثمّ توجّهت إلى حيّ الحلباني وسط العاصمة، واشتريت كتباً متنوّعة كثيرة بالمال الذي سلّمني إيّاه محمود ثمّ عدت لبيته.

سرّ محمود كثيراً بالكتب، وبعد مضيّ أيّام قلائل التهمها قراءة وحفظاً فأثار دهشتي.

قال لي: لقد قرّرت أن أدرس الثانويّة العامّة في بيتي، دراسة حرّة لأدخل الجامعة.

قلت: فكرة جيدة، ستدخل كليّة الحقوق وتترقّى لرتبة ضابط.

قال: لا مطلقاً، إنّما سأدخل كليّة الشريعة.

قلت مازحاً: بارك الله بك أيّها الشرطيّ الشيخ.

قال: أتظنّني أمزح؟ ستتأكّد من ذلك بنفسك يا صديقي.

عدت بعد أيّام ففاجأني انكباب محمود على كتب المنهاج المدرسيّ.

كنت طوال أشهر أتردّد على بيته محمود ويدهشني جدّه ومثابرته.

مرّت الأيّام وتقدّم محمود لامتحان الثانويّة العامّة ونجح بتفوّق ثمّ دخل كليّة الشريعة في العاصمة، وبعد أربع سنوات التقيت به في زيارة للعاصمة ذات مرة وكان قد حصل على الإجازة في الشريعة، وينوي إكمال دراسته للحصول على درجة الماجستير.

قلت في نفسي: يا لعلوّ الهمّة ويا للنفوس العظيمة، سيكون محمود مرجعاً فكرياً لي بعد أن كان شرطياً مرتشياً في نظري، وكل ذلك برشوة امتنع عن أخذ غيرها، واعتمد على الحلال الطيّب في كسبه.

من ترك شيئاً لله...

أمضيت أيّام غياب وليد الستّة وأنا أتردّد بين العاصمة واللواء، ولم أبت في الغرفة الكهف إلاّ الليلة الأخيرة من غيابه لألتقي به في صباح اليوم التالي.

في السادسة والنصف من صبيحة اليوم السادس قدم وليد محمّلاً بكثير من أصناف الطعام ولوازم المطبخ، كبّة مشوية، لحم بعجين، ملاعق، قهوة، سكاكين مطبخ...

فرحت لمقدمه كثيراً وزالت وحشتي بمجيئه. سألته عن أسرته فقال: أمر طارئ يا أخي! أمر طارئ حدث معي!

قلت: أرجوك بلا مقدمات، أنا لا أطيق صبراً، هات ما عندك، ما الأمر؟

ضحك قائلاً: سأرحمك هذه المرّة وسأبدأ بلا مقدّمات، جلست على السرير قبالته وقلت: تفضّل، هيّا.

تنحنح ثلاث مرّات وابتلع ريقه مرّتين ثمّ قال: الأمر الطارئ أنّني في الثامنة مساءً وصلت مدينتي، نزلت من القطار، أوقفت سيّارة أجرة، قلت له كم تأخذ منّي لإيصالي إلى حيّ السبيل، وتعرف أنّ حيّ السبيل يقع غربيّ المدينة، قال لي السائق العجوز، لا لم يكن عجوزاً، كان يبلغ من العمر...

صرخت في وجهه: هيه، ارحمني، إن لم تبدأ بما يفيد سأتركك حالاً.

قال باسماً: أرجوك دعني أمارس هوايتي في تعذيبك نفسياً.

قلت: أتراني العريف صبحي الذي قرّرت أن تقصّ عليه بالإكراه سيرة حياتك، وكان يفرّ منك فراراً ويتوسّل إليك أن تسكت، وأنت تلاحقه لعشرين يوماً كاملة مثرثراً بتفاصيل اليوم الأوّل من حياتك حتّى كاد المسكين أن يفقد عقله.

قال: لا... لا... سأنهي اليوم الأوّل من ولادتي للعريف صبحي نهاية هذه الشهر فلا تقلق، مازلنا في الساعات الأولى لبشارة القابلة أمّ محمود لأبي بمولدي.

ضحكت عالياً وقلت: دعنا من العريف صبحي الآن وابدأ بالموضوع فالاجتماع الصباحيّ لم يتبقّ له سوى أربعين دقيقة.

قال: دخلت البيت فارتفعت الزغاريد.

- : لمولدك؟ أم لمجيئك من السفر؟ فأنت لم تغب عنهم أكثر من شهر.
- : لا، لخطبتي. قال ضاحكاً...
- : لم أفهم، خطبتك؟ ممّن؟ لِم لم تخبرني أنّك ستخطب؟
- : والله أنا تفاجأت بالأمر يا أخي، أمّي خطبت لي فتاة تدرس اللغة الإنجليزيّة في الجامعة.
- : أقابلتها من قبل؟ أتعرفها؟

- : لا، لكنّ الأمر الغريب أنّ الفتاة هي ابنة شريكي القديم الحاجّ خليل الذي سامحته قبل وفاته.
- : ولماذا هي بالذات؟ أتعرفون أسرته من قبل؟
- : معرفة سطحيّة، لكنّ المرحوم ترك وصيّة لأسرته أن يزوّجوني ابنته الوحيدة بعد وفاته.
- : ماذا تقول؟ أمر عجيب حقاً!
- : لكن طلبت منهم إعطائي فرصة للتفكير، والحقيقة فرصة لطلب مشورتك أنت بالأمر، فبماذا تشير عليّ؟

فكّرتُ مليّاً وقلت: عليك الآن أن تصلّي ركعتي الاستخارة وتتوكّل على الله، فما أظنّ إلاّ أنّ الله سيردّ لك خيراً ممّا أخذ منك.

****

يوم عاصف

مرّ شهران كاملان وقويت علاقتنا -أنا ووليد- بقائد الكتيبة، الأمر الذي كان يغيظ النقيب يحيى كثيراً، ولمّا لم يجد سلطة كاملة عليّ، ولا سيما أنّي حصلت على إذنٍ بالتغيّب حتّى عن درس الرياضة من العقيد أحمد قائد الكتيبة، راح النقيب يحيى يحاول إيجاد مبرّر أو تهمة ليتسنّى له إحالتي لضابط أمن اللواء، ممّا يعني تجاوز سلطة العقيد أحمد نفسه وإدخالي في ورطة قد تدخلني السجن ومسارب التحقيق المرعبة.

استدعاني مرّة بعد الاجتماع الصباحيّ إلى مكتبه وحاول استفزازي قائلاً: أما زلت تصلّي يا إرهابيّ؟

أجبته ببرود: سيادة النقيب! أنت قلت إنّ الصلاة ممنوعة في الجيش وأنا لا أخالف القوانين. لم يعجبه جوابي فأراد استفزازي، رفع أصبعه في وجهي وشتم الذات الإلهيّة ثمّ قال: أقسم بذمّتي وبشرفي العسكريّ إن رأيتك تصلّي لأدخلنّك السجن ولو بقي في خدمتك العسكريّة يوم واحد.

قلت متصنّعاً الهدوء كاتماً غضبي: سيادة النقيب! لا أدري لم تكرهني لهذه الدرجة. نظر إليّ بعينين تقطران غضباً وقال: لأنّك تصلّي خفية ولا تقول الحقيقة.

قلت بابتسامة أغاظته جدّاً: أنا رجل لا أكذب.

قال: انصرف الآن وسنرى من منّا الرجل.

خرجت قلقاً وأنا أفكّر بكلامه وأستعيد في ذاكرتي قول (دي لابواسيه): "حُلْم المقهورون بأن يكونوا رجالاً، ولكنّ صورة الرجل ظلّت في مخيّلتهم هي صورة القاهر الذي قهرهم، وسبّب ذلك الخوف من الحرّيّة".

وصلت الغرفة الكهف فناداني وليد مقبلاً من قيادة الكتيبة قائلاً: إجازة، إجازة، لقد أعطاني العقيد إذناً (إجازة) لمدّة ستّة أيّام.

اقترب منّي فرحاً وأخرج من جيبه ورقة موقّعة من العقيد. قلت ببرود: خيرٌ إن شاء الله.

قال: أراك مكروباً!

رويت له ما دار بيني وبين النقيب يحيى فبدا القلق واضحاً على وجهه.

قلت: لا عليك، لا تُضيِع وقتك، حاول أن تلحق بالقطار المغادر إلى مدينتك بعد الظهر.

انشغل وليد بإعداد حقيبته ثمّ غادر مودّعاً وهو يحاول أن يخفّف عنّي شيئاً من القلق وأوصاني بعدم المبيت لوحدي في الغرفة الكهف، وأن آخذ حذري من النقيب وعيونه وتحديداً العريف سمير.

قلت: المشكلة في صلاة الظهر يا وليد، لقد كنّا نتناوب أنا وأنت على الحراسة على باب الغرفة الكهف لنؤدّيها بطمأنينة، أمّا الآن فصلاتي ستكون بدون حارس ينبّهني فيما لو قدم أحد نحوي.

قال: خذ حذرك وحاول أن تؤدّيها بخفّة الطائر.

كان وقت صلاة الظهر قد حان، وقف وليد حارساً على باب الغرفة وأدّيت الصلاة بطمأنينة وبعد أن انتهيت منها صافحني مودّعاً ثمّ غادر مسرعاً.

حاولت التمدّد على السرير، أحسست بضيق شديد وهمٍّ جثم على صدري، لبست ثيابي بسرعة وقصدت طريق الجبل متسلّلاً نحو مدينة السنانيّة. أنهيت دروسي في بيت العقيد أحمد ثمّ توجّهت بعدها إلى العاصمة. قصدت وزارة الأوقاف للحصول على برنامج للدروس الدينيّة التي تقام في مساجد العاصمة لعلّي أشغل وقتي في حال غياب محمود عن البيت وغياب وليد عن اللواء، وجدتُ أنسبها وأقربها لبيت محمود درس في الأخلاق في مسجد وسط المدينة، ودرس آخر في التفسير في مسجد قريب من

مسجد العاصمة الكبير. قرّرت الذهاب إلى درس المسجد الأوّل، وسط العاصمة، الذي سيبدأ بعد صلاة عشاء ذلك اليوم. اشتريت دفتراً لأسجّل فيه أهمّ أفكار الشيخ ثمّ رحت أتسكّع في شوارع حيّ الجلاء ريثما تحين صلاة المغرب، فلديّ متّسع من الوقت لصلاة العشاء. قادتني خطاي إلى شارع المالكاني، رحت أتأمّل فندقاً فاخراً يعجّ بالنزلاء القادمين إليه والمغادرين منه. تقع عيني على اللوحات المكتظّة على شرفات المكاتب الدكتور(...) أخصائي أمراض قلبيّة، المحامي(...) لدى جميع المحاكم، صالون الأمراء للحلاقة، محلّ الخواجة للألبسة الفاخرة، مطعم الكيوان للمأكولات العربيّة...

كنت - لا أدري - ناسياً أم متناسياً أنّ المنطقة حسّاسة جدّاً وتخضع لرقابة أمنيّة صارمة، ينتشر فيها رجال المخابرات السرّيّة بكثافة ويخضع كلّ من يمرّ عليها للرقابة الخفيّة.

أحسست بأنفاس رجل يقترب منّي من جهة الخلف، اقترب كثيراً، أحسست بيد تمتدّ إلى يدي اليمنى وتشبّك بإحكام أصابعها بأصابعي المتراخية، التفتُّ مذعوراً فوقعت عيني على رجل ثلاثينيّ أشقر يحدّق بي بعينين زرقاوين كعيني شيطان، ووجه مستطيل بوجنتين ناتئتين، وفم افترّ عن بسمة خبيثة ماكرة كشفت عن أسنان بيضاء متّسخة، تخالطها صفرة واضحة. توقّفت قليلاً عن السير، قرّب فمه من أذني ففاحت منه رائحة الدخان الثقيلة، همس قائلاً: أمن سرّي، ثمّ جرني بخفّة وغمز بعينه أن أتابع السير برفقته.

خفق قلبي بشدّة، فأنا مخالف حسب النظام العسكريّ في الخروج من القطعة العسكريّة ولا مبرّر لديّ للتجوّل في المنطقة شبه الأمنيّة.

تيّار من القشعريرة سرى من رأسي حتّى أخمص قدمي. لم يكن لديّ إذن بمغادرة اللواء لذلك اليوم، ممّا يعني مبيتي في فرع الأمن السرّيّ هذه الليلة. قلت في نفسي: يا له من حظّ عاثر، ربّما يطول بقائي في السجن أيّاماً طويلة حتّى أعود للّواء، هذا فضلاً عن التحقيق القاسي والإهانة التي لا يمحى أثرها على مرّ الأيّام، ربّما أتّهم بالإرهاب، من يدري، بل ربّما بالتجسّس، في أحسن الأحوال خروج غير مشروع من القطعة العسكريّة، وهذه مخالفة عسكريّة تكلّفني على الأقلّ السجن في اللواء عشرين يوماً.

ازدحمت الخواطر المرعبة في مخيّلتي وأنا أتابع السير برفقته صامتاً. همس في أذني ثانية: عسكريّ أم مدني؟

هممت بالجواب فارتفع صوت أذان المغرب فلم أقل شيئاً، تابعت سيري برفقته صامتاً كهيئة صديقين ودودين. راح المصلّون يتوافدون إلى المسجد الذي اقتربنا من بابه كثيراً، بحركة خاطفة سحبت يدي من يده التي تراخت قليلاً ثمّ دخلت المسجد صامتاً وتوجّهت لغرفة الوضوء، ارتبك قليلاً ثمّ لحق بي على الفور، يقطر الغضب من عينيه الزرقاوين. جلس إلى جانبي يرقبني زامّاً شفتيه. أسترق النظر إليه بين الحين والآخر فتقع عيني عليه يرطّب شفتيه بلسانه وهو يرمقني بنظراته المرعبة صامتاً كذئب يرمق فريسة أتعبته، أتابع وضوئي بارتباك شارد الذهن بطيء الحركات. انتهيت من الوضوء ودخلت المسجد فدخل برفقتي، وقفت بالصفّ استعداداً للصلاة فالتصق بي، كبّرنا للصلاة فلم يفعل لكنّه وضع يده اليسرى على اليمنى محاولاً تقليد المصلّين ثمّ صحّح وضعيّة اليدين على الفور حتّى لا يلفت انتباه أحد من المصلّين.

لم أفهم كلمة من قراءة الإمام إلاّ كلمة "آمين"، فرحت أردّد بعدها دعاء الحسن البصريّ لمّا قدم على الحجّاج: "اللهم يا وليّ نعمتي! يا مغيثي عند كربتي! اجعل هذا الأمر برداً وسلاماً عليّ كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم"، شغلت بترديد "حسبي الله ونعم الوكيل" في الركوع والسجود بدلاً من التسبيح.

انتهت الصلاة واختلط المصلّون بعدها بفوضى معتادة لتأدية صلاة السنّة، أفسحت الطريق لرجل مسنّ مرّ بيني وبينه، تبعه آخر ثمّ آخر سمين جدّاً، بخفّة وسرعة خاطفة قفزت خطوة واحدة إلى الوراء متترّساً بالرجل السمين الذي حجبني للحظة عن عينه، وخلف عمود قريب هويتُ ساجداً دون تكبيرة إحرام، وضعت مقدّمة رأسي على الأرض بلا حراك ورحت أختلس النظر إليه من سجودي متجاهلاً ضربات قلبي المجنونة، راح يتلفّت كالمبهوت يمنة ويسرة، جرى مسرعاً خارج المسجد من الباب الشرقيّ، تسلّلت بخفّة واستترت بعمود آخر لأسترق النظر إليه دون أن يراني، تفرّس سريعاً في وجوه المصلّين الخارجين للتوّ من باب المسجد الشرقيّ ولمّا لم يعثر عليّ بينهم اندفع يجري كالمجنون خلف مجموعة أخرى، ابتعد قليلاً عن المسجد باحثاً عنّي، تسلّلت من الباب الغربيّ للمسجد بخفّة وارتباك، رحت أجري في شوارع فرعيّة وأنا أحمل حذائي في يدي لاهثاً حتّى انقطع نفسي. راح الأمان يداخلني كلّما ابتعدت عن المكان، بدأت أستردّ أنفاسي شيئاً فشيئاً وأنا أخفّف من سرعتي حتّى وصلت أخيراً مسجداً عثمانياً قديماً بالقرب من محطّة القطار، صعدت الدرج نحو الطابق الثاني مرهقاً، جلست في زاوية بعيدة وتنفّست الصعداء، أغمضت عيوني وأنا أضحك بصوت أقرب للبكاء، قلت في نفسي: اليوم حصلت على مرتبة الامتياز مع مرتبة الشرف في سباق الضاحية، سجدت لله شكراً ثمّ خنقتني دموع الفرح... اعتدلت

جالساً.... أسندت ظهري للجدار وأغمضت عيوني مستعيداً لحظات الرعب التي هزّتني بينما راح المؤذّن يرفع صوته لصلاة العشاء.

أدّينا الصلاة واحتشد المصلّون بعدها وتراصّوا أمام طاولة ترتفع متراً عن مستوى جلوسهم منتظرين الشيخ عبد الودود للإصغاء لدرسه.

دخل الشيخ المذكور فشقّ الناس له طريقاً وراح من يمرّ بهم يتخاطفون يده مقبّلين بانحناء ماسحين أكفّهم -التي لامست يده- بصدورهم.

استقرّ الشيخ على كرسيّه، تمتم بصوت غير مسموع، تنحنح مرّتين، سمّى الله وصلّى على رسوله ﷺ ثمّ فتح كتابه وشرع في إلقاء محاضرته.

التقطت قلمي ورحت أكتب أهم أفكاره بسرعة اعتدتها من دراستي الجامعيّة. تكلّم طويلاً وأسهب في شرح صفحات من كتاب في بين يديه ولم يفتني إلاّ القليل ممّا نطق به. انتهى من الدرس أخيراً، أغلق كتابه وشرع بالدعاء، كان صوته يتقطّع وتخنقه دموع الخشية ونحن نؤمّن على دعائه ويضجّ المسجد الصغير بكلمة "آمين"، وفي لحظة مفاجئة قطع الشيخ دعاءه وانفجر غاضباً على شابّ كان يلتقط له صورة من كاميرة صغيرة بيده وأسرف في توبيخه لدرجة أذهلتني..

خجل الشاب كثيراً وتقلّص جسده متخفّياً بين الحضور ولم يُجدِ اعتذاره شيئاً، تمنّيت لواستطعت الوقوف من بين الحضور لأحتضن ذلك الشابّ وأصرخ بوجه الشيخ: كفى يا مولانا! نعرفك لا تملّ من المقابلات التلفزيونية والكاميرات واللقاءات فما الذي دهاك...؟! ألم يترفق الرسول ﷺ بشابّ اشترط أن يأذن له الرسول الكريم بالزنى مقابل إسلامه، أفليس من الأجدى الترفّق والنصح بدلاً من اللوم والتقريع أم أن الألقاب العلميّة والأسماء الكبيرة تعفي حاملها من مسؤولية التأسّي بخير الخلق؟

أخرجت قلمي على عجل ووضعت إشارة ضرب (X) كبيرة على صفحات المحاضرة الثلاثة ثمّ خرجت سريعاً ولم أعد بعدها.

صورة مضّادة...

في اليوم التالي قصدت مدينة السنانيّة، أنهيت دروسي ثمّ توجّهت إلى العاصمة ثانية وفي نيّتي لحضور درس تفسير في مسجد قريب من المسجد الكبير. كنت أسير بتردّد يدلّ عليه بطء خطواتي وأقول في نفسي: ما الفائدة من درس أغامر بحضوره بعد العشاء وأعود إلى بيت صديقي محمود متأخّراً ثمّ أصحو قبل شروق الشمس للالتحاق باللواء، ماذا سأجني من درس يُلقى علينا من كتاب تفسير قديم يمكنني الاطّلاع عليه بنفسي.

قادتني الخطى أخيراً إلى المكان رغم تردّدي الذي فوّت عليّ صلاة العشاء جماعة، دخلت المسجد فوقعت عيني على شيخ مسنّ وقور، بلحية بيضاء نظيفة مسبلة، يرتدي نظّارة بنّيّة سميكة، بين يديه مجلّد من تفسير ابن كثير، يلقي درسه على مجموعة لا تتجاوز العشرة من كبار السنّ مثله.

انتحيت جانباً وأدّيت صلاة العشاء، ورحت ألوم نفسي قائلاً: شيخ مسنّ وكتاب تفسير قديم وحضور قليل، يا لي من أحمق حقاً.

ألجأني تعبي من المسير للانضمام للحضور بغير رغبة شديدة منّي. راح الشيخ عبد الرزّاق يسرد علينا تفسير قوله تعالى: "قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ"

توقّف الشيخ قليلاً، أغلق الكتاب بهدوء وقال: يا إخوتي سأروي لكم قصّة تتعلّق بهذه الآية، أرجو ألاّ تسألوني عن سندها، قد لا تصحّ سنداً، لكنّها مقبولة من حيث المعنى.

مرّ عليّ فيما قرأت: أنّ امرأة عجوزاً كانت مؤمنة بدعوة نبيّ الله نوح عليه السلام، تسكن كوخاً فقيراً، كانت ترى نبيّ الله -عليه السلام- يمرّ بكوخها كلّ يوم يحمل الأخشاب والمسامير فدار بينهما الحوار التالي:

قالت العجوز: ماذا تفعل يا نبيّ الله؟

- : أصنع سفينة أحمل فيها من كلّ زوج من المخلوقات اثنين ومن آمن بدعوتي، لقد أمرني ربّي بذلك.
- : وكيف تجري سفينة على أرض يابسة، حيث لا بحر ولا نهر هنا؟
- : ستتفجّر الأرض ينابيع وتفيض البحار وتفتح السماء أبواباً ينسكب منها ماء منهمر، فيلتقي هذا وذاك فيغمر الأرض طوفان رهيب يربو موجه على الجبال الشامخة والقمم السامقة، ولا عاصم يومها من أمر الله إلاّ من رحم.

- : لكنّي يا نبيّ الله عجوز لا تستطيع السير إليك، فلا تنسني فيغرقني الماء وأنا مؤمنة بك.

تبسّم نبيّ الله نوح وقال: لك ذلك، سأخبرك عندما يفور التنّور كعلامة على ذلك.

عادت العجوز مطمئنّة إلى كوخها، فرحة بهلاك الكافرين، وراحت تتخيّل السفينة المتأرجحة تجري بها في موج كالجبال حتّى غلبها النوم.

فار التنّور وحمل نوح –عليه السلام- في السفينة من كلّ زوجين اثنين ومن آمن بدعوته، ولانشغاله نسي العجوز المسكينة.

ارتفعت السفينة فوق الماء وراح الناس يفرّون إلى الجبال والمرتفعات، ظنّاً منهم أنّ الطوفان لن يبلغهم، وكان من بين الفارّين ابن نوح نفسه. ناداه والده أن يركب السفينة، لكنّه أجاب باستكبار: "سآوي إلى جبل يعصمني من الماء".

قال: يا بنيّ! لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم.

فأبى الولد المغرور فزمجر الموج الغاضب وهاج مرتفعاً كجبل يفصل بين واديين من ماء فحال بين نبيّ الله تعالى وابنه. غلبت الشفقة الأب النبيّ فقال: "ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين". فجاءه الجواب حاسماً: "إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح"

غمر الماء كوكب الأرض وأغرق الله الكافرين ورست السفينة على جبل الجوديّ فضجّت الأرض حمداً وتعظيماً لله.

كان نوح منشغل البال بمصير العجوز حزيناً لنسيانها، مشى إلى موضع كوخها متحسّراً مستغفراً فوقعت عينه على الكوخ، هاله أنّ ذاك الكوخ لم يتبلّل، خرجت العجوز تدبّ على الأرض بعصاها وبادرته بالسؤال: يا نبيّ الله متى سيحصل الطوفان؟ أراه تأخّر كثيراً، أليس كذلك؟

تبسّم نوح -عليه السلام- وقال: لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم.

كنت مشدوداً إلى حكاية الشيخ عبد الرزاق الذي راح يردّد: "لا عاصم بالأمس واليوم وغداً من أمر الله إلاّ من رحم" ثمّ خنقته الدموع فتمتم قائلاً: اللهمّ رحمتك وسعت كلّ شيء، إن شئت اعتبرني شيئاً وارحمني.

هزّني كلامه وطاف بمخيّلتي صورة الشيخ عبد الودود ومشهد هروبي من رجل الأمن السرّيّ، ورحت أستذكر أيّام الله التي أسبغ عليّ فيها نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، فأغمضت عيني خشوعاً وفاضت دموعي حرّى على خدودي، وراح الشيخ عبد الرزّاق يكمل قائلاً: يا لغرور الشباب وكفرانه بنعمة ربّه، تغريه مظاهر القوّة ومبتكرات العلم فيرى نفسه مستغنياً عن رحمة الله تعالى، وقرأ قوله تعالى: "كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى" يا لشقوته إذ يظن نفسه مستغنياً عن الله بماله وعلمه وسلطانه، ثمّ شرع بالدعاء بعد ذلك منهياً درسه الذي أحدث منعطفاً كبيراً في حياتي.

كان الوقت متأخّراً وأنا أقطع شوارع حيّ الزهور قاصداً بيت صديقي محمود، وصلت متعباً، قرعت الباب فلم يجبني أحد، قرعته مرّات عدّة ولا مجيب، زاد قلقي وأدركت أنّي في ورطة عندما تذكّرت أنّ محمود كان قد أخبرني قبل يومين أنّ لديه مهمّة ليليّة لهذا اليوم ولن يعود قبل طلوع الفجر. ضربت جبيني بكفّي بخفّة وغرقت في التفكير، هل أذهب إلى فندق قريب لأنام فيه؟ أم أعود إلى اللواء لأوفّر المال؟ قرّرت أخيراً العودة إلى اللواء.

إلا من رحم...

قصدت محطّة حافلات مدينة السنانيّة القريبة من اللواء، بالكاد أدركت الحافلة الأخير المغادرة إليها لهذه الليلة.

لم يكن يشغل بالي - طوال الطريق- مسألة عواء كلاب القمامة التي يخرسها صوتي إن سمعته، لكنّ شيئاً آخر كان يشغلني، شيئاً لا أعرفه على وجه الدقّة، لكنّه يبعث القشعريرة في جسدي المتعب، لم يكن الركاب عسكريّ سواي. رحت أشغل نفسي بتقليب نظري في وجوه الركّاب المتراخين على كراسيّهم، كان معظمهم عمّالاً عادوا من مصانعهم، تبدوا على وجوههم علامات التعب، قلت في نفسي يا هل ترى بم يحلمون...؟ أترى يحملون مخاوف لا يعرفونها مثلي أم سيهنأون برقاد هانئ لا يعكر صفوه شيء...

توقفت الحافلة في محطتها الأخيرة وترجلت قاصداً اللواء، مررت بالبيوت المتفرّقة وقد خلدت لنوم لا يعكّر صفوه إلاّ وقع خطواتي المتسارعة وأنفاسي المتلاحقة. كنت أستحثّ الخطى متجاهلاً مخاوفي مجهولة السبب، تباعدت البيوت وأنا أمر بها حتى

مررت بآخر بيت من الحيّ الأخير من المدينة، تأمّلت مصباحه الأصفر الناعس كثيراً حتّى خلته رقّ لحالي. أدرت بعدها ظهري للمدينة النائمة وانغمست شيئاً فشيئاً في ظلمة موحشة تغصّ بالأشباح. راح الطريق الترابيّ الضيّق يتضح لي على ضوء القمر كلما ابتعدت عن المدينة. لاح لي ظلُّ رجلين يسيران أمامي، أنِست نفسي قليلاً برؤيتهما، لكن سرعان ما سرى الخوف في أوصالي مجدّداً عندما تواردت إلى مخيلتي قصصُ الجنّ واللصوص وقطّاع الطرق التي كثيراً ما كانت تعترض طريق السائرين ليلاً في مناطق مهجورة. تابعت سيري بخطىً مرتجفة وأنا أردّد آية الكرسيّ بصوت أقرب للهمس، اشتدّت خطواتي وصارت أكثر ثقة عندما تذكّرت درس الشيخ عبد الرزّاق وتفسيره لقول الله تعالى: "لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم".

ما بال الرجلين راحا يبطئان من سيرهما؟ قلت في نفسي: لعلّي أنا أسرعت السير.

سرت قشعريرة الخوف في جسدي ثانية عندما توقّف أحد الرجلين وسط الطريق على بعد خمسين متراً أمامي واستدار ناحيتي، على يساره حفرة عميقة محاذية للطريق نزل بها صاحبه، وعلى يمينه صخرة ضخمة تجثم على سفح مرتفع، الطريق الضيّق لا يتّسع إلاّ لواحد وها قد سدّه الرجل بجثّته الضخمة. رحت أقترب بخطى مرتجفة وخفقات قلب متسارعة، لا أكذب إن قلت أنّي هممت بأن أولّي هارباً لولا تذكّري أن السنانيّة مدينة متواضعة تخلو من فنادق للمبيت، تحاملت على نفسي ورحت أقترب من الرجل، لم يعد يفصلني عنه إلاّ متران أو ثلاثة على أبعد تقدير، على ضوء القمر ومن مسافة قريبة جدّاً أبصرت شعره المتناثر كأجمة شوك، وعينيه الحمراوين المتلامعتين كجمرتين، سرى خدر ثقيل في رأسي راح يفقدني الإحساس بالمكان والزمان، كانت خطوتي الأخيرة قبل الانقضاض عليه ثقيلة راسخة، وفي لحظة خاطفة خارجة عن الإحساس بالزمان والمكان صرخت في وجهه بالمقلوب وأمسكت خاصرتيه بقوّة، رفعته عالياً مثل ريشة، استدرت نحو الحفرة وألقيته بكلّ قوّتي، تدحرج نحو قاع الحفرة كضربة جزاء لكرة من قدم لاعب دوليّ، استدرت بتثاقل رهيب وتابعت مسيري غير ملتفت إلى الوراء، أجرّ أقدامي كما يجرّ ثور كسول رحى ثقيلة، تضخّم جسدي كثيراً كبطل فيلم كرتونيّ، رحت أسير كدبّابة حربيّة تصعد سفح جبل، أدب الأرض بحذاء ثقيل كصخرة، لم أسمع عواء كلاب القمامة ولم أشعر بالتعب وأنا أعتلي قمّة الجبل لأهبط الوادي الذي تموضع عليه لواؤنا.

عاد الإحساس بالزمان والمكان يدبّ في جسدي شيئاً فشيئاً كلّما اقتربت من غرفتنا الكهف أكثر، وصلت أخيراً باب الغرفة، فأزدحمت عليّ أسئلة لم أجد لها جواباً حتى لحظة كتابة هذه السطور...هل خاف الرجل لما رآه من رباطة جأشي؟ هل كان ذلك حلم يقظة مرّ بي لشدّة خوفي؟ هل كان شبحاً ليس إلاّ وأنا كنت دونكيشوتاً جديداً؟ ...

نسيت أن أنحني للدخول من باب الغرفة القصير كعادتي فاصطدم رأسي بإطاره الخشبي، دخلت وأنا أفرك جبيني ألماً وألقيت بنفسي على السرير وراحت تتباطئ دقات قلبي، نسيت أن أخلع حتى حذائي العسكريّ وسرعان ما غرقت في نوم عميق حتّى الصباح.

كان وليد نائماً عندما دخلت الغرفة الكهف، وفي الصباح حدّثته بما جرى لي، فعَلا وجهَه الهمُّ وقال: كانت مشكلتي في كلاب القمامة، والآن لست أدري أمع الجانّ مشكلتي أم مع الإنسان؟

ضحكت وقلت: لنحلّ المشكلة الأولى أوّلاً، وسأفي بوعدي اليوم وأعلّمك كلمة السرّ التي تخيف الكلاب.

تحمّس وليد للأمر وقال: سننجزها اليوم إن شاء الله تعالى.

****

كلمة السرّ

انتهى يومنا الروتينيّ في اللواء، تناولنا غداءنا وتسلّلنا عبر شعب الجبل وقبل الاقتراب من منطقة القمامة شرعت في تدريب وليد على مهمّة إخراس الكلاب. قائلاً: عليك يا وليد أن تتقدّمني بخمسين متراً مارّاً بمحاذاة منطقة القمامة، سينبح الكلب الزعيم عليك ثمّ تتبعه بقيّة الكلاب نابحة، تابع سيرك دون اكتراث، ستبدأ الكلاب بالهجوم يتقدّمها زعيمها، أحمر اللون، عليك عندها أن تشنّ هجوماً معاكساً.

حدّق بي باستغراب وقال: هجوم معاكس؟ أقوم به؟ أنا؟!

- : نعم، وستتقاصر المسافة بينكما وتتقاصر.
- : ثمّ ماذا؟
- : لن يتبقّى بينكما إلاّ متر واحد، مسافة الانقضاض على الخصم.
- : انقضاض؟ قال مذهولاً...
- : استمع ولا تقاطعني، وأردفت: عندها اصرخ بأعلى صوتك واركل الكلب الزعيم على فمه، لكنّك - بالتأكيد - لن تنال منه لأنّه سيكون عندها قد ولّى هارباً تتبعه كلابه.
- : لكن يا أخي إن أصرّ ولم يولّ هارباً، ماذا أفعل؟

- : زعيم الكلاب جبان وذكيّ سيلحظ إصرارك من عينيك وصوتك، ولن يغامر مطلقاً بحياته، فهمّه حماية عرشه في منطقة القمامة فقط، ولا يغرنّك نباحه فهو رعديد، إن أحسّ بالخطر ولّى هارباً ولا يهمّه رفاقه الذين سيولّون هاربين خلف زعيمهم.
- : ألا توجد غير هذه الطريقة للتفاهم مع الكلاب؟
- : الكلاب لا تفهم بالمفاوضات يا وليد، أردفت قائلاً: على كلّ حال سأتدارك الأمر إن حصل شيء مفاجئ.

ربّتُ على كتفه قائلاً: هيّا يا وليد، يا بطل.

أخذ وليد نفساً عميقاً مرّتين أو ثلاثاً، رفع رأسه عالياً وقال: يا لها من ثورة على الكلاب...

قلت: لكن حذارى من التراجع يا وليد في منتصف الطريق فنصف الثورة تعني موت.

صرخ عالياً: الشهادة أو النصر.

قهقهت ضاحكاً وقلت: يا رجل أتُراك تخوض حرب البوسنة والهرسك أم حرب فيتنام؟! هيّا انطلق.
مشى وليد واثق الخطى مرفوع الرأس ورحت أتبعه، وكانت المسافة التي تفصلنا تقارب المئة المتر.

نبح زعيم الكلاب وتبعه رفاقه حماة القمامة، لم يكترث وليد كثيراً، بدأت الكلاب هجومها الصاعق، شنّ وليد هجوماً معاكساً لكن بخطىً مرتبكة بعض الشيء. راحت خطاه تتقاصر كلّما اقتربت الكلاب أكثر، صرخ بها عالياً بصوت مرتجف ثمّ راحت خطاه تتقاصر أكثر وكأنّه يصعد جبلاً، ضجّ المكان بالنباح وزادت الكلاب من سرعتها، وفي لحظة مفاجئة ولّى وليد مدبراً وهو يستغيث صارخاً: أنقذني، أدركني أرجوك.

سارعت لنجدته وصرخت بأعلى صوتي لإخافة الكلاب فلم يغيّر ذلك من الأمر كثيراً، لقد أحاطت بنا الكلاب من كلّ جانب تنبح مكشّرة عن أنيابها، لم يبق حجر إلاّ رجمتها به، أحاول ضرب هذا بحذائي العسكريّ الثقيل، أرمي ذاك بحجر، أصرخ على الآخر، وأنا أنسحب شيئاً فشيئاً من المكان، ووليد يناور معي، وبعد لأيٍ وجهد ومعركة صاخبة انسحبنا من المكان نلهث، يتبعنا بين الحين والآخر نباح كلب مزهوّ بالنصر أو همهمة آخر.

جلسنا على صخرة من صخور السفح نستردّ أنفاسنا، نظرت إلى وليد الذي علا وجهه الخوف والتعب، ضحكت عالياً وقلت: لقد ضاعت كلمة السرّ يا وليد، وعليّ أن أعاني مثلك في كلّ مرّة أمرّ بها من جانب القمامة حتّى أعثر على كلمة السرّ.

قال بصوت منخفض: لقد فشلت تماماً، يا أخي أنا أخشى الكلاب والعتمة، الواقع أنا جبان تجاههما.

قلت بحدّة: كفى!! لا توبّخ نفسك، فالمرء يضع نفسه في المربّع الذي يختاره بإرادته.

قال: لا تقل لي هكذا قال لابواسيه.

قلت: قال قريباً منه، لقد قال لابواسيه: "من خصائص شخصيّة المقهور تحقير الشعور الذاتيّ".

قال: يا أخي ومن هذا لابواسيه؟

قلت: شابّ كان يعمل محاميّاً وكره الطغيان مثلي فقدّم مرافعة ضدّه من تسعين صفحة، وسمّاها "العبوديّة المختارة" ولم يكتب غيرها لأنّه توفّي في الثلاثين من عمره.

صمت طويلاً وقال: لله درّك يا لابواسيه، عشت حرّاً ومتّ حرّاً، أمّا نحن فلا ندري إلى متى سنظلّ عبيداً.

قلت: فلنعشق الحرّيّة والأحرار ونكره العبوديّة لغير الله يا وليد.

وقفت أنفض الغبار التي علقت بثيابي وأتمتم:

أنت عبد الله فالزم ليس
للحرّ تحوّل

ما سوى العبوديّة

لله تسوّل

لحق بي وليد صامتاً، توقّفنا قليلاً عند خيمة الدفاع الجويّ، لاحظ البدويّ الطيّب ياسين حارس الخيمة تعبنا فأدخلنا خيمته وقدّم لنا كأساً من الشاي وسألني قائلاً: كأنّكم مطاردون يا حضرة الرقيب؟

تبسّمت قائلاً: ظنّك في محلّه يا ياسين؛ الحقيقة نحن مطاردون من كلاب القمامة.

ضحك ياسين ملء شدقيه وقال: يا صديقي لولا قمامتنا ما سكنت الكلاب أرضنا.

أمضينا وقتاً قصيراً مع ياسين ثمّ عدنا أدراجنا إلى اللواء متسلّلين عبر شعب الجبل.

امتياز مع مرتبة الشرف

ضجّت مكبّرات الصوت في صبيحة اليوم التالي تطلب منّا الحضور للاجتماع في ساحة اللواء على غير العادة. تقاطر عناصر الكتائب نحو ساحة اللواء، اصطفّ الجنود في ساحة العلم، حضر قائد اللواء وقائد أركانه وقادة الكتائب وعزف النشيد الوطنيّ ثمّ وقفنا بانتظار كلمة قائد اللواء كأنّ على رؤوسنا الطير، بقامته الممشوقة ولباسه الميدانيّ النظيف، تتلامع على كتفيه ثلاث نجمات برّاقة ونسر ذهبيّ، تقدّم سيادته ليعلن البدء بالتدريب المكثّف استعداداً لخوض اختبارات الجيش التي سيحضرها ضبّاط برتب كبيرة من هيئة الأركان لتقييم استعدادنا العسكريّ وجاهزيّتنا القتاليّة. توعّد قائد اللواء كلّ من يقصّر في التدريب أومن يتهرّب من الاختبارات التجريبيّة التي ستسبق اختبارات الجيش، ممّا يعني أنّني سأحرم من المبيت أو التسلّل خارج اللواء.

انصرفنا من ساحة الاجتماع، تناولنا فطورنا على عجل وعدنا للبدء في درس الرياضة أوّلاً، ثمّ تبع ذلك دروس ومحاضرات عن الأسلحة والتكتيك العسكريّ والاستطلاع حتّى المساء، عدنا متعبين ونمنا باكراً للاستعداد لسباق الضاحية التجريبيّ الأوّل في اليوم التالي الذي لا يستثنى منه أحد مع فارق في المسافة الواجب قطعها، فالمساعدون -موظفو المكاتب- والمعذرون من بقيّة أفراد اللواء عليهم أن يقطعوا كيلو متراً واحداً فقط، أمّا بقيّة أفراد اللواء فعليهم أن يقطعوا مسافة ثلاثة كيلومترات في زمن لا يتجاوز اثنتي عشرة دقيقة. وكالعادة لم يحالفني الحظّ في تحقيق النتيجة المطلوبة، ولا سيما أنّي اعتدت على الراحة فيما مضى من أيّام كنت أمضي جلّها خارج اللواء.

عدنا من سباق الضاحية مجهدين نتصبّب عرقاً متجاهلين قرصات برد الشتاء الذي حلّ مبكراً هذا العام.

كنت أصعد سفح الجبل الأجرد لاهثاً برفقة المساعد أوّل سومر، سومر طويل القامة ضخم الجثة، قصُرت سترته العسكريّة عن تغطية كرشه الضخم، يتدلّى شحم رقبته إلى ترقوته فيبدو للناظر كفقمة عجوز تزحف على الصخور السوداء بتكاسل.

خطر على بالي أن أداعبه لما أعلمه من طيبة قلبه وسرعة بديهته في المواقف المرحة. قلت: سيادة المساعد! يبدو أنّك لم تحقّق درجة امتياز طوال خدمتك العسكريّة.

توقّف قليلاً ليستردّ أنفاسه ثمّ قال: من قال لك ذلك؟ لقد حصلت مرّة على درجة الامتياز مع مرتبة الشرف في الجري، وكنت الأوّل على اللواء كاملاً.

قلت متعجّباً: وكم كانت المسافة؟

قال: ثلاثة كيلومترات وزيادة.

قلت: عجيب حقاً! لكنّك بالتأكيد لم تكن بهذه البدانة.

قال: بل كنت أزيد عن وزني هذا أربعة كيلوغرامات.

قلت: ومتى كان ذاك السباق؟

قال: عندما انتحر الرقيب أسعد في ساحة اللواء.

قلت: لم أفهم، من أسعد هذا؟ وما علاقة السباق بانتحار أسعد؟

قال: الرقيب أسعد -رحمه الله- كان من عناصر كتيبة الدبّابات الأولى، السريّة الثالثة، رجلاً لطيفاً، مرهف الحسّ، قليل الكلام، يهوى الرسم، صبر كثيراً على ظلم النقيب "علي" قائد السريّة، فقد كان هذا الأخير يكرهه ويمارس عليه ضغوطاً كثيرة.

قاطعته قائلاً: وما السبب؟ ولماذا لم يشكُه لقائد اللواء؟

قال: لا أدري ما السبب بالضبط، يقولون عداوة طائفيّة، كما كان أسعد يكره قائد اللواء أيضاً ويعتبر الشكوى له لا تجدي نفعاً، لمكانة النقيب علي عند القيادة.

قلت: لا بأس، لكن ما علاقة سباق الضاحية -الذي حقّقت فيه فوزاً متميّزاً- بانتحار أسعد.

قال: ذات صباح دعينا لاجتماع اللواء الأسبوعيّ في ساحة العلم، وما أن عزف النشيد الوطنيّ حتّى خرج أسعد من الصفّ وتقدّم نحو العلم يحمل قنبلة يدويّة وسط ذهولنا وقال: "اسمعوا، سأنتحر بسبب النقيب علي لأنّي لم أعد أطيق صبراً على ظلمه، ولا

أريد قتله احتراماً للقوانين العسكريّة، وما أن أنهى كلامه حتّى نزع مسمار الأمان من القنبلة، فانطلق كلّ عناصر اللواء وضبّاطه بدون استثناء في سباق ضاحية مفتوح وفي كلّ الجهات، وبلمح البصر كنت أوّل من وصل جبل وردان الذي يبعد أكثر من ثلاثة كيلو متر عن ساحة اللواء.

قلت مندهشاً: وأسعد؟

قال: دوّى انفجار ضخم وتمزّق أسعد أشلاء متناثرة.

تابع المساعد سومر مسيره ولحقت به صامتاً وغرقت في التفكير متسائلاً: ماذا دهاك يا أسعد؟ ألم يكن من الأولى أن تنتقم من ظالمك لا من نفسك؟ وأيّة قوانين عسكريّة تلك التي كنت عبداً لها؟ لم لم تهرب على الأقلّ؟ ألم يصدق لابواسيه عندما قال عن أمثالك: "إنّ الذين يخافون الحرّيّة يحاولون دائماً أن يغلفوا مخاوفهم في إطار من العقلانيّة، الذي هو في حقيقته خوف من الحرّيّة"؟

منحة في محنة

مرّ الأسبوع الأوّل من التدريبات التحضيريّة شاقاً، أمضيناه بين دروس التكتيك العسكريّ والرياضة والجري والتدريب على الأسلحة والنظام المُنضمّ (الاستعراض العسكريّ والوقوف والدوران وأداء التحيّة العسكريّة...) كنّا نعود مساءً منهكين وسرعان ما نلقي بأنفسنا على أسرّتنا ونغطّ في نوم عميق. ذات مساء لم أستطع النوم لأرقٍ أصابني، فتحتُ المذياع فطرق سمعي صوت عالم أعرفه يلقي محاضرة قيّمة عن قيمة الحرّيّة كمقصد من مقاصد الشريعة وأعجبني قوله:" الفرق بين حرية العبيد وحرية السادة كالفرق بين الحقيقة وظلّها، فالعبد حرٌ فيما يرغب به سيده فقط، أما السيد فهو حر فيما يراه بنفسه أنه الأصلح، وكذلك الفرق كبير بين التحلم والتذلل ، فالتحلم هو الترفع والصبر مع المقدرة، أما التذلّل فهو ضعف النفس وهوانها وتزلّفها، ومثله الكرم والإسراف، والشجاعة والتهوّر، والفقر الممدوح (الفقر عن امتلاك كالافتقار من كثرة السخاء) والفقر المذموم (الفقر بسبب كسل وقعود...)"، وأسهب الرجل حتى وصل إلى معنى الزهد وساق حديثاً ﷺ يقول فيه:"...ليست الزهادة في الدنيا بإضاعة المال وتحريم الحلال وإنما أن تكون فيما في يد الله أوثق منك مما في يدك ...". فهناك خيط رفيع بين المعاني المتضادة إذاً.

التقطت قلماً وورقة ورحت أكتب كلّ كلمة يقولها، امتلأت الصفحة الأولى والثانية والثالثة ولم تنته المحاضرة حتّى سوّدت اثنتي عشرة صفحة كاملة. أنهى الشيخ كلامه وعكفت على المسودّة وبيّضتها في عشر صفحات أخرى، ولم أنس أن أكتب تاريخ المحاضرة واسم المحاضر الذي كان منفياً خارج البلاد من قبل الزعيم...

طويت الصفحات ووضعتها وسط مجلّة مرميّة على الطاولة أمامي على نيّة أن أخفيها في الصباح عن عين النقيب يحيى قائد السريّة، ليقيني أنّها ستكون أقوى دليل لإدانتي فيما لو وقعت بين يديه.

أفقت صباحاً على ألم في خاصرتي اليمنى، تابعت الجري في درس الرياضة متجاهلاً ألمي، زاد الألم تدريجياً لدرجة أنّي عجزت عن متابعة الجري، لم يُجدِ تهديد النقيب يحيى معي شيئاً، لقد أقعدني الألم أرضاً، اتصلوا أخيراً بسيّارة الإسعاف العسكريّ. نُقلت إلى مركز اللواء الطبّيّ، وضع الطبيب سبّابته على مكان الألم من خاصرتي، ضغطها بشدّة ثمّ رفعها، صعقت ألماً، نظر الطبيب إلى سائق سيّارة الإسعاف وطلب منه نقلي إلى المستشفى العسكريّ في العاصمة.

انطلقت بي سيّارة الإسعاف العجوز، يختلط أنيني بصوت محرّكها الصاخب، تكاد تخنقني رائحة دخانها المنبعث من العادم ولعلّه تسرّب من النافذة الخلفيّة المكسورة الزجاج، توقّف السائق مرّتين في الطريق ليصبّ الماء في مبرّد المحرّك الذي ترتفع درجة حرارته بين الحين والآخر، وصلنا أخيراً وأدخلت غرفة الإسعاف السريع وتبيّن بالتحليل أنّي مصاب بالتهاب حادّ في الزائدة، لم يمهلني فريق الأطباء العسكريّين، فأدخلوني غرفة العمليّات وشرعوا بإجراء العمليّة الجراحيّة وكان آخر كلمة قلتها بسم الله قبل التخدير الكامل، ولم أستطع إكمال البسملة وغبت بعدها عن وعيي.

استيقظت مساءً لأجد نفسي على سرير المستشفى، حاولت النوم على جانبي الأيسر فآلمني جرح العمليّة، تأوّهت بصوت عالٍ، فأسرعت الممرّضة وحقنت ذراعي بإبرة مسكّن ولم استيقظ إلاّ على صوت وليد في التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي. سلّم عليّ وليد وقبّل جبيني بتأثّر بادٍ على وجهه ثمّ جلس على كرسيّ إلى جواري.

قال بصوت حزين: لا بأس عليك، طهور إن شاء الله، كيف تجد نفسك الآن؟

قلت: لله الحمد، لا أشعر بالألم إلاّ عند الحركة.

قال: لعل ذلك خير، فالأمور عندنا تزداد صعوبة والتدريب يزداد كثافة.

لا أدري كيف تذكّرت أوراق المحاضرة التي كتبتها بالأمس وأودعتها المجلّة.

قلت قلقاً: وليد، هل أتى لغرفتنا النقيب يحيى كعادته؟

- : نعم، أتى صباح البارحة وصباح اليوم وتناول الفطور معي بعد درس الرياضة وسألني إن كنت أصلّي فنفيتُ ذلك بشدّة.
- : هل جلس إلى الطاولة القريبة من سريري؟
- : نعم، وما المشكلة؟ قال مستغرباً.
- : والمجلّة؟ والمحاضرة؟ قلت فزعاً.
- : ما بك؟ أيّة محاضرة وأيّة مجلّة؟ نظر إليّ وقال باستغراب.
- : محاضرة كتبتها يا وليد ووضعتها بين أوراق مجلّة العربي التي كانت على الطاولة، تصلح دليلاً قويّاً لإدانتي.

مسحت وجهي وأشحت عنه قليلاً وسط ذهوله.

قال: لم أفهم ما تقصد، سكت قليلاً ثمّ قال: لا لا يوجد شيء في المجلّة، كان النقيب يحيى يحرّك المجلّة بيده كمروحة يدويّة ليحرّك الهواء أمام وجهه، ثمّ قلّبها قليلاً ورمى بها جانباً عندما حضر طعام الإفطار.

- : ذاك مستحيل، إنّها ثلاث وعشرون صفحة بين مسوّدة ومبيّضة من القطع الكبير، إنّها لا تحتاج لجهد لرؤيتها يا وليد.
- : يا أخي! ثق تماماً أنت واهم أو ناسٍ، لا يوجد شيء في المجلّة، قال باطمئنان.

غرقت في التفكير متذكّراً قول الشيخ عبد الرزّاق ذات يوم: "لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم".

انتهى وقت الزيارة فودّعني وليد قائلاً: سأعود إليك غداً إن شاء الله تعالى، فالعقيد أحمد سيأذن لي بزيارتك كما أذن لي اليوم فهو قلق عليك.

في ظهيرة اليوم التالي عاد وليد لزيارتي، فرحت لمقدمه كثيراً، أقبل نحوي مبتسماً، انحنى وقبّلني من جبيني، مسح على رأسي مرّتين ثمّ مسح بيده على صدره مغمض العينين على هيئة الصوفيّ المتنسّك.

- : كأنّك تتبرّك بي. قلت ضاحكاً
- : دستور، دستور، بركاتك يا شيخ... قال متمثّلاً خشوع المريد
- : يا وليد، أراك لا تكفّ أبداً عن مزاحك، فما وراءك بالضبط؟

- : لقد عدت البارحة إلى المجلّة والعجيب أنّي وجدت المحاضرة بين صفحاتها.

سررت بحديث وليد واطمأنّت نفسي كثيراً، جلس قليلاً ثم ودّعني وعاد أدراجه إلى اللواء قائلاً: لعلّي لا أستطيع زيارتك في الأيّام القادمة فغداً تبدأ اختبارات الجيش.

مرّ أسبوع آخر وتحسّنت حالتي الصحيّة وصار بإمكاني الخروج من المستشفى، وقّع لي طبيب المستشفى إذن استراحة لمدّة عشرين يوماً أقضيها في بيتي، وأرسل برقيّة بذلك إلى قيادة اللواء.

غادرت المستشفى صباحاً وقصدت محطّة الحافلات في حيّ السامريّة وركبت حافلة متوجّهة إلى مدينتي.

وصلت بيتي مساء فتفاجأت الأسرة بي، طمأنتهم على وضعي الصحيّ فحمدوا الله، وراح الزوّار يزدحمون في بيتي كلّ مساء للاطمئنان عليّ.

خبر صادم

مرت العشرون يوماً سراعاً وتماثلت للشفاء وقفلت راجعاً للواء. وصلت في السادسة صباحاً، فرح وليد كثيراً بعودتي، واستقبلني بمرحه المعهود بأهازيج شعبيّة وأبيات شعريّة حتّى أضحكني.

في السابعة والنصف حضرنا اجتماع الكتيبة لتحيّة العلم، وبعدها توجّهت لمكتب العقيد أحمد للسلام عليه، سرّ كثيراً برؤيتي وأجلسني بقربه وسألني عن صحتي، لكنّه فاجأني بخبر صادم قائلاً: يا سيّد ثائر صدر أمر بنقلي إلى قطعة عسكريّة أخرى وأتمنّى ألاّ يؤثّر ذلك عليك كثيراً. عقد لساني الخبر وجثم على صدري الهمّ وأظلمت الدنيا في عيوني ليقيني أنّ ذلك سيكون فرصة مواتية للنقيب يحيى ليمارس أقصى الضغوط عليّ. وبعد صمت طويل قلت: يا أبا زهران! لقد وقع ما كنت أخشاه حقاً.

ربّت على كتفي وقال: لا عليك سأوصي بك قائد الكتيبة الجديد وسأخبره بأنّك مدرّس ناجح علّه يعتمد عليك في تدريس أولاده، أمّا الآن فسأتّصل بطبيب اللواء ليعطيك إذناً باستراحة جديدة تمضيها في بيتك فهو صديقي ولا يردّ لي طلباً.

قلت: جزاك الله خيراً.

قال: لا تقلق، فمن هيّأ لك أبا زهران لا ينساك.

رفع سمّاعة الهاتف واتّصل بالطبيب قائلاً: سأرسل لك الرقيب ثائر أرجو أن تعطيه أطول إذن ممكن. ثمّ شكره وطلب منّي التوجّه للمركز الطبّيّ حالاً.

قصدت مركز اللواء الطبّيّ وكان الطبيب العسكريّ بانتظاري، رحّب بي قائلاً: يا رقيب ثائر! ليس من صلاحياتي أن أعطيك إذناً بمغادرة اللواء لكن بإمكاني منحك استراحة أسبوع تقضيها داخل اللواء، تعفى بموجبها من درس الرياضة وبقيّة الدروس العسكريّة. شكرته كثيراً، تناول قلماً ووقّع لي على إذن إعفاء من الدروس اليوميّة لمدّة أسبوع أقضيه داخل اللواء.

رجعت حزيناً إلى الغرفة الكهف وأخبرت وليد بأمر نقل العقيد أحمد فاغتمّ لذلك كثيراً لكنّه راح يخفّف عنّي قائلاً: لا تقلق كثيراً فعلاقتي مع النقيب يحيى على ما يرام وما عليك أنت إلاّ تحاشي الصدام معه والتقرّب إليه بإخفاء صلاتك قدر المستطاع.

غادر العقيد أحمد في اليوم التالي، بعدما طلب منّا أنا ووليد الحضور لمكتبه ليودّعنا، كان وداعاً مؤثراً لا أنساه...

مرّ اليوم التالي وعلمت الكتيبة بأمر نقل قائدها العقيد أحمد، ففرح البعض وعلى رأسهم النقيب يحيى وبعض الضبّاط الآخرين وحزن البعض الآخر. وباتت الكتيبة في حالة ترقّب وكثرت الإشاعات والتخرّصات حول القائد الجديد، اسمه، رتبته، شدّته...

في صباح اليوم الثالث توافدنا لاجتماع تحيّة العلم، واصطفّت السرايا بالساحة كالمعتاد وبعد التفقّد تقدّم ضابط طويل القامة، مرفوع الرأس، أحمر الوجه، مقطّب الحاجبين تتلامع نجمتان ونسر ذهبيّ على كتفيه العريضين، عُزف النشيد الوطنيّ وتعلّقت الأنظار بالقادم الجديد، وساد الصمت على الساحة وكأنّ على رؤوسنا الطير. قلّب سيادته نظره بالحضور ثمّ تقدّم نحونا بخطوات واثقة، استعرض السرايا معقّداً بين يديه خلف ظهره، ثمّ رجع إلى مكانه، رفع أصبعه قائلاً: اسمعوا يا كتيبة المشاة! ضبّاطاً وصفّ ضبّاط وجنوداً، أنا العقيد عزّام، لا أتسامح مع مقصّر كائناً من كان، الانضباط ثمّ الانضباط، الرياضة ثمّ الرياضة.

أنزل يده إلى جنبه، سكت قليلاً ثمّ قال بصوت غليظ: انتبه (ماذّاً حرف الباء طويلاً) كتيبة المشاة، من الصفّ انصرف.

رجّت الساحة بخبطة أقدامنا على أرضها ونحن نؤدي تحيّة الانصراف، فردّ تحيّتنا وأدار ظهره منصرفاً وشرعت السرايا واحدة فواحدة مغادرة الساحة جرياً لتأدية

درس الرياضة على وقع أغنية فيروز: خبطة قدمكم عل الأرض هدّارة...أنتم الأحبة و ا لكم الصدارة..." تممتمت بحزن: إلى متى يا فيروز سنظل نخبط الأرض بأقدامنا التي لا تساوي خبطة قدم طفل واحد من أطفال الحجارة على الأرض السليبة، وما خبطة أقدامكم بالدبكة اللبنانية يا فيروز إلا كخبطة أقدام جيشنا الذي لم يخف يوماً عدواً ولم يشف غليلاً، فكلاهما رقص على الجراح يا فيروز... وأي صدارة ونحن على أعتاب عدو معربد نستجدي منه سلاماً مذلاً...ونستورد سلاحاً خرباً...

تقدّمت من النقيب يحيى، حيّيته قبل أن يغادر الساحة وقدّمت له إذن الاستراحة الخاصّ بي والموقّع من طبيب المركز الطبّيّ. لم يردّ على تحيّتي بل نظر إليّ متشفّياً وقال: انصرف إلى مكتبي وانتظرني هناك ريثما أعود من درس الرياضة.

توجّهت لمكتب النقيب يحيى محبطاً، أقول في نفسي: يا لها من أيّام عصبية قادمة.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا...

عاد النقيب يحيى من درس الرياضة إلى مكتبه بعد ساعة، وتشاغل عنّي قليلاً بتغيير ثيابه وغسل يديه ووجهه ولمّا فرغ توجّه إليّ قائلاً: والآن يا رقيب ثائر،

صمتُّ ولم أجب.

أكمل قائلاً: والآن يا حضرة الرقيب المتمارض! ألم تنتهِ استراحاتك؟

هممت بالكلام فبادرني بالقول: العقيد أحمد وانصرف عنّا لا ردّه الله، وأنت الآن عدت إلى النظام العسكريّ الذي نسيته منذ زمن بحجّة تدريس أولاده، مهملاً واجبك تجاه وطنك وجيشك.

قلت: سيادة النقيب، ما الذي تريد قوله بالضبط.

قال بنبرة حادّة: أريد أن أقول أنّ عليك عدم مغادرة الكتيبة متراً واحداً بدون إذني.

- : سيادة النقيب، أنا أحترم القوانين العسكريّة وأنت قائدي المباشر وأوامرك نافذة، لكنّك مازلت تكرهني رغم أنّي لا أخالف تعليماتك.
- : خالفت تعليماتي كثيراً، ولذلك أكرهك، قال مقاطعاً.

- : متى؟ وأيّة تعليمات صدرت منك وخالفتها؟
- : الصلاة مثلاً...الصلاة يا شيخ الكتيبة المحترم، قالها بنبرة حادة.
- : لكنّي تركت الصلاة مذ طلبت منّي ذلك.
- : تكذب...
- : لا أكذب...
- : العريف سمير رآك البارحة تصلّي.

سكتّ قليلاً وقلت: العريف سمير يكذب، أنا لا أصلّي.

خفّف من حدّة كلامه قليلاً وقال بنبرة هادئة: يا حضرة الرقيب، لا ضرورة للصلاة، اذكر ربّك بينك وبين نفسك تكون قد أدّيت الصلاة، ألم تسمع قول الله: "وزكر ربّه فصلّى" (لم يقل "باسم ربك" واستبدل حرف الذال بحرف الزاي كذلك)

ضربت جبيني بكفّي بخفّة كاتماً ضحكتي وقلت: أووه.. لا أدري كيف غابت عنّي هذه الآية.

نظر إليّ قائلاً: أعرفك مثقفاً نبيهاً.

- : أعدك ألاّ أعود للصلاة في حياتي، وأكتفي بذكر الله، لكن سيادة النقيب ما الضرر من الصلاة؟
- : يا أخي! الصلاة تجعل من الإنسان إرهابيّاً دون أن يشعر.
- : اممم، معك حقّ، الآن فهمت...قلتها مكتماً ضحكتي.

سرح بي خيالي بعيداً ومرّ أمام ناظري طيف والدي تقطر لحيته من آثار الوضوء يستعدّ لأداء صلاته، وحضرني قوله الذي لا أنساه ما حييت: "يا بنيّ من يقتل نملة يسأل عنها يوم القيامة".

تأوّهت قائلاً: سيادة النقيب لقد تعبت من الوقوف وأنا مريض فهل تسمح لي الآن بالانصراف؟

سكت قليلاً ثمّ قال: لكنّي لا زلتُ قلقاً.

- : قلق..!؟
- : نعم، قد تعود للصلاة.
- : أتريد أن أحلف لك بالله ألاّ أعود للصلاة مطلقاً؟

سكت قليلاً وقال: نعم، لكن ليس بالله.

- : بشرفي العسكريّ؟

فكّر طويلاً ثمّ قال: الطلاق، تحلف لي بالطلاق على زوجتك ألاّ تصلي أبداً.

قلت: كما تريد، وحلفت له بالطلاق ثلاثاً ألاّ أصلي، فهشّ وبشّ وصافحني مودّعاً.

خرجت من مكتبه متوجّهاً إلى غرفتي، توضّأت على الفور وصلّيت ركعتي الضحى.

وفي الواحدة والنصف ظهراً عاد وليد من الدروس العسكريّة الروتينيّة فقصصت عليه ما جرى بيني وبين النقيب يحيى فذهل لمّا سمع وقال: والآن ماذا ستفعل وقد حلفت بالطلاق ألاّ تصلي.

قلت: الآن أقم الصلاة لنصلّي جماعة قبل أن تفوتنا صلاة الظهر.

ضحك عالياً وقال: دعني أتوضّأ أوّلاً، ثمّ أحلف بالطلاق -أنا الآخر- ألاّ أترك الصلاة مطلقاً.

مناورات حربيّة في معركة السلام

مرّ أسبوع الاستراحة سريعاً وعدت للروتين اليوميّ (درس رياضة صباحيّ، دروس نهاريّة مملّة، دروس تكتيك ليليّة...) حتّى جاءنا الأمر بالحضور لاجتماع اللواء على غير العادة، تجمّعنا في ساحة اللواء، هدأ التهامس والهمهمة وساد الصمت والترقّب عندما تقدّم قائد اللواء نحو المنصّة الرئيسيّة وأمسك بالميكرفون قائلاً: أيّها الضبّاط وصفّ الضبّاط والمجنّدون! جاءنا الأمر من قيادة الأركان بالاستعداد لمشروع مناورات عسكريّة للوائنا في البادية ولمدّة شهر كامل، علينا أن نرفع جاهزيّتنا القتاليّة، ونكون على أتمّ استعداد لخوض معركتنا القادمة مع العدوّ لتحرير أرضنا المغتصبة وكلّنا فداء للزعيم العظيم والوطن العزيز.

علت موجة تصفيق عالية وهتاف مزمجر بحياة الزعيم والوطن، استرسل بعدها قائد اللواء بخطبة مجلجلة لمدّة ساعة كاملة وأنهاها بتوجيهاته العسكريّة الصارمة وشعاراته الملتهبة، ثمّ طلب منّا الانصراف والشروع بتفقّد سلاحنا وذخيرتنا ولباسنا الميدانيّ الكامل.

عدت من الاجتماع برفقة وليد مهموماً، غارقاً بالتفكير بكلام قائد اللواء، أقول في نفسي ما الجدوى من مناورات تتكرّر كلّ عام مرّة أو مرّتين ثمّ يعود جيشنا المغوار للسبات من جديد.

لاحظ وليد شرودي فقال: أراك مهموماً، فهل تفكّر بكلام قاله لابواسيه أم بطلاق زوجتك؟

قلت: لا هذا ولا ذاك يا صاحبي إنّما أفكّر بجدوى هكذا مناورات.

قال: لا تقل لي إنّها ليست مهمّة، فكلّ جيوش العالم تجري مناوراتها الروتينيّة.

قلت: ذاك صحيح يا وليد! ولكن يا أخي نحن نخوض معركة السلام مع العدوّ على حدّ قول الزعيم.

قال: وما المشكلة؟ ما المانع أن نحمل غصن الزيتون بيد والبندقيّة باليد الأخرى؟

أخذت نفساً عميقاً وحدّقت به طويلاً.

قال: أفحمتك أليس كذلك؟

تصنّعت ابتسامة ملولة وقلت: أنت تستفزّني كعادتك، أليس كذلك؟

قال: لا أبداً، حوار يا أخي، حوار.

قلت ضاحكاً: يا وليد! لم أجد أبلغ من قول القائل:

منذ ثلاثين سنة

لم تطنّ طلقة واحدة

وسط حروب الطنطنة

والكلّ خاض حربه

بخطبة ذريّة

ولم يغادر مسكنه

نظر إليّ باستفزاز وقال: أراك تبالغ كثيراً، لقد خضنا معركة منذ عشرين سنة فكيف تقول منذ ثلاثين سنة؟

ضحكت طويلاً وأشرت بيدي إلى عنابر ناقلات الجند قائلاً: أتخوض معركة بهذه العربات العجوز، والتي سرق النقيب يحيى معظم وقودها في الشتاء الماضي؟

قال: يا أخي، لِم تستخفّ بها؟ صحيح أنّها صنعت بالسبعينات من هذا القرن لكنّها قلعة متحرّكة مذخّرة بثلاثة صواريخ وأربعين قذيفة مضادّة للدروع، وخمسمائة طلقة رشّاش متوسّط، وتحمل أحد عشر فرداً بين رام وسائق وجنود يتحصّنون بها في أرض المعركة. يا أخي! أنت لا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب.

قلت ضاحكاً:

منذ ثلاثين سنة

نسخر من عدوّنا لشركه

ونحن نحيّي وثنه

ونشجب الإكثار من سلاحه

ونحن نعطي ثمنه

فإن تك سبعاً عجائب الدنيا

فنحن الثامنة.

ضحك وليد وراح يبدل ملابسه ثم شرع في إعداد الطعام، بينما استلقيت أنا على سريري لآخذ قسطاً من الراحة.

مغامرة مرعبة

عدنا في اليوم الثاني من صيانة عرباتنا العسكريّة لتناول إفطارنا بعد توقف كامل للدروس الروتينيّة ودروس الرياضة بسبب الإعداد للمناورات القريبة.

رجعنا من عنابر ناقلات الجند بعد تفقّدها، وتوجّه وليد إلى مطبخ الكتيبة لإحضار حصّتنا من الطعام. كان يسير قريباً منّي -في طريق العودة- الرقيب أوّل فوّاز مسؤول الذاتيّة في الكتيبة، سلّمت عليه فردّ سلامي ببشاشته المعتادة وبصوتها الدافئ، سألني عن وضعي الصحّيّ، قلت: ليس على ما يرام يا فواز، فمكان العمليّة الجراحيّة مازال يؤلمني.

قال: لِم لم تذهب إلى المستشفى لتفقّد حالتك الصحية؟

تأوّهت قائلاً: لم يكترث طبيب المستشفى كثيراً بشكايتي عندما عدت من استراحتي، بل طلب منّي الالتحاق باللواء فوراً.

رقّ فوّاز لكلامي وبدا على وجهه التأثّر واضحاً، توقّف عن السير وقال: ألديك إذن قديم باستراحة مرضيّة؟

قلت: نعم لدي...

قال: يمكنك المغادرة من خلال شعب الجبل مساء اليوم، ولا تعد إلى اللواء قبل شهر من الآن. سكت قليلاً ثمّ قال: بل لا ترجع قبل خمسة وأربعين يوماً لأنّي متأكّد أنّ مشروعنا سيستغرق أكثر من ذلك.

قلت: لم أفهم، كيف لي أن أتغيّب كلّ هذه المدّة بدون إذن رسميّ؟

قال: لا عليك، سأزوّر تاريخ البرقيّة القديمة التي أُرسلت لنا من المستشفى وأنا المسؤول الوحيد الآن في ذاتيّة الكتيبة وأنا من يسجّل الغياب والحضور كذلك كما تعلم.

قلت: والنقيب يحيى؟

قال: النقيب يحيى سيغادر اليوم بعد الظهر إلى البادية مع قائد الكتيبة للإعداد للمشروع.

احتضنته شاكراً وقلت: لن أنسى معروفك يا فوّاز.

أسرعت للغرفة الكهف وكان وليد بانتظاري لتناول الفطور، أخبرته بما جرى بيني وبين فوّاز فاستغرب وحذّرني قائلاً: لا أنصحك بهذه المغامرة، فأنت قائد ناقلة جند وسينكشف الأمر في مشروع المناورات لأنهم لن يجدوا بديلاً عنك يقود العربة.

تردّدت قليلاً وقلت: لكن فوّاز سيتدبّر الأمر.

قال: لا أظنّ ذلك فالأمر مكشوف، سيسأل النقيب يحيى عمّن أسعفك؟ وكيف نقلت إلى المستشفى؟

زاد قلقي ورجعت للرقيب فوّاز وأخبرته بمخاوفي التي أثارها وليد، فكّر قليلاً وقال: هيّا معي.

قلت: إلى أين؟

قال: إلى المركز الطبّيّ لأخذ إذن بمراجعة المستشفى.

قلت: من قال أنّهم سيعطونني إذناً بالمراجعة.

مشى أمامي قائلاً: تمارضْ وسر متوكّئاً على كتفي وادّع الألم الشديد، وأنا أعرف كيف أتدبّر الأمر.

قصدنا المركز الطبّيّ ودخلت متوكّئاً على كتفه وأنا أئن وأتأوّه، استقبلنا طبيب المركز فعاجله الرقيب فوّاز بقوله: سيادة الدكتور! هذا الرقيب لم ينم ليلة أمس من الألم وقد أجرى عمليّة جراحيّة قبل شهر تقريباً.

طلب منّي الطبيب الاستلقاء على سرير المعاينة وبدأ بقياس الضغط والحرارة ثمّ تلمّس أثر العمليّة الجراحيّة فصرخت كمَن صعقه ألمٌ لا يُحتمل. صمت الطبيب قليلاً ثمّ قال: أظنّه ألماً عارضاً سيزول بالمسكنات. تدخّل فوّاز قائلاً: دكتور، برأيي أن تعطيه إحالة للمستشفى الذي أجرى فيه العمليّة وهم سيشخّصون حالته ويقرّرون، لأنّي أخشى أن يذهب للمناورات غداً ويصعب نقله إلى المستشفى-كما تعلم- إذا ازدادت حالته سوءاً.

صمت الطبيب قليلاً وقال: لا بأس سأعطيه إحالة للمستشفى، على أن يعود إلى اللواء بعد الانتهاء من مراجعة الطبيب هناك.

وقّع الطبيب ورقة الإحالة وخرجت متوكّئاً على كتف فوّاز حتّى ابتعدنا عن المركز الطبّيّ فشكرت فوّاز كثيراً وودّعته متوجّهاً إلى الغرفة الكهف. اطمأنّ وليد للأمر بعدما قرأ ورقة الإحالة وحذّرني من التأخّر عن الشهر، وفي المساء حملت حقيبتي وودّعت وليداً، ثمّ غادرت اللواء متسلّلاً عبر شعب الجبل متوجّهاً إلى العاصمة ومنها إلى مدينتي.

أمّ عزيز فوق النظام

قصدت مدينتي قبل العيد بيوم واحد لشراء لوازم عيد الفطر. خطر لي أن أمرّ ببيت وليد مؤمّلاً رؤيته. طرقت الباب فسمعت صوته من الداخل فاطمأننت لوجوده، تفاجأ

برؤيتي كثيراً... سلمت عليه فردّ سلامي ببرود وقلق واضحين قائلاً: لقد وقعت أخيراً يا صديقي.

قلت: خيراً إن شاء الله؟

قال: أيّ خير وقد انفضح أمرك.

قلت: كيف؟ ماذا تقصد؟

قال: السجن ينتظرك لا محالة، قضي المشروع في عشرين يوماً فقط وعدنا إلى اللواء وكشف النقيب يحيى غيابك غير المبرّر.

قلت مذعوراً: وفوّاز؟

قال: انتقل فوّاز إلى قيادة الفرقة وحلّ سامح مكانه وقد حاول الأخير التكتّم على غيابك لوصيّة فوّاز لكنّ الأمر خرج من يده؛ فالنقيب يحيى دقّق في أمر غيابك وأخبر العقيد بذلك فقرّر الأخير إرسال برقيّة بحث عنك، لكنّي استمهلته حتّى ينقضي العيد، وكنت محتاراً كيف أبلّغك لأنّي لا أعرف الطريق إلى قريتك ولا يوجد لديكم اتصالات هاتفيّة.

قلت: دعني أدخل أوّلاً واشرح لي الأمر بالتفصيل.

قال: لا... لا تدخل، التحق باللواء حالاً.

قلت: والعيد، وأولادي؟

صرخ في وجهي: أمجنون أنت؟ قلت لك اذهب حالاً وانتظرني في اللواء ريثما أعود بعد غدٍ لنذهب إلى بيت العقيد عزّام مباشرة، علّنا نتدبّر الأمر قبل فوات الأوان.

- : وما علاقتك به؟ أتعرف بيته؟
- : أنا حلاّقه الخاصّ.
- : لا، لن أذهب حتّى أمضي اليوم الأول من العيد.
- : قلت لك أنت مجنون.
- : سأعود إلى بيتي لأمضي يوم العيد مع أسرتي ثمّ ألتحق باللواء.

نظر وليد إليّ باستغراب وقال: كما تشاء، إذا فلنسافر معاً بعد غد.

قلت: اتفقنا إذاً.

غادرت بيت وليد سريعاً قافلاً إلى القرية، أمضيت يوم العيد وفي مساء اليوم التالي كنّا أنا ووليد في طريقنا إلى العاصمة.

كان وليد كثير الصمت طوال الرحلة التي استغرقت ستّ ساعات لم ينم خلالها إلاّ قليلاً، واستبدّ بي القلق والخوف كثيراً.

بعد رحلة سبع ساعات راح القطار يتهادى مطلقاً صفير تعب من رحلته الطويلة فأيقظ سكان البيوت على طرفي السكة، كانت تقع عيني بين الحين والآخر على رجل يتمطط على شرفة منزله مرتدياً لباس النوم، أو صغير يفرك عينيه، يطل من نافذته متثائباً تعباً من مرحه الطفولي يوم العيد، أو امرأة تجمع غسيلها من حبال الشرفة بتراخ. لقد استيقظت العاصمة واستيقظت معها مخاوفي وصحوت من رقدة قصيرة على همي. وكانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحاً عندما توقف القطار في محطته الأخيرة، نظر إليّ وليد ملياً وقال بعد تفكير: علينا أن نتوجّه إلى بيت العقيد عزّام قبل الالتحاق باللواء. هززت رأسي موافقاً وعدّلت ملابسي ثم حملت حقيبتي الزرقاء الصغيرة وترجلت من القطار خلف وليد صامتاً.

ركبنا سيّارة أجرة وقصدنا حيّ القباني حيث يسكن العقيد عزّام. بعد نصف ساعة ترجّلنا من السيّارة ودخلنا سيراً على الأقدام في شوارع الحيّ الشعبيّ الضيّقة.

وقع بصري على ساحة ترابية بين البيوت فرحت أتملّى أثر العيد فيها، فهاهنا مراجيح مكسورة، وهناك بقايا حلوى زهد به طفل مشاغب فازدحم النمل عليها، وتلك بالونات ملونة عالقة بالأشجار، وهذه فردة حذاء بسيور مقطّعة. ثار في نفسي الأسى وشعرت برغبة بالبكاء كالأطفال ثم استجمعت قواي وابتسمت عندما نهرني وليد لتأخري عنه في المسير.

تابعنا مسيرنا حتّى وصلنا باباً أزرق لمنزل من طابقين، قرع وليد الباب، وبعد قليل أطلّ علينا قائد الكتيبة -الذي لا يعرفني شخصيّاً- بقامته الممشوقة ووجهه الأحمر، يرتدي بيجاما رياضية زرقاء نظيفة، فحيّاه وليد باستعداد دون رفع اليد -لأنّه لم يكن يرتدي زيّه العسكريّ- وتبعته محيّياً باستعداد أنا الآخر، فردّ العقيد عزّام قائلاً: أهلاً، تفضّل يا أخي الكريم.

دخلنا البيت وقدّم لنا الرجل الشاي وحلوى العيد وسأل وليد عن إجازة العيد وعن أسرته ثم تطرق إلى مستوى أولاده بالدراسة وعن الامتحانات القادمة ثم قال موجّهاً كلامه لي: تفضّل يا أخي الكريم، وأشار بيده إلى طبق الحلوى، تناولت قطعة ورفعتها إلى فمي، فالتفت العقيد عزّام إلى وليد قائلاً: لقد تبيّن لي يا وليد أنّ الرقيب ثائر،

مدرّس اللغة الإنجليزيّة متهرّب من الجيش حسب ما أكّد لي النقيب يحيى، وسأرفع به برقيّة بحث إلى القيادة غداً.

جمدت يدي قبالة فمي المفتوح، أحسست بقشعريرة خوف تسري في جسدي وحاولت إخفاء ارتجافة يدي التي فضحتها ذرات السكر والطحين المتساقطة من قطعة الحلوى بشكل ملحوظ. ارتبك وليد قليلاً ثم أشار بيده نحوي على الفور قائلاً: سيّدي، هذا هو الرقيب ثائر أمامك.

فوجئ الرجل بكلام وليد والتفت إليّ بذهول، احمر وجهه تدريجياً وراح يتفرسني من رأسي حتى أخمص قدمي، تلامعت قطرات عرق بين خطوط جبينه المتجعد، وقال بصوت منخفض : أنت...؟...أنت الرقيب ثائر...؟

رددت قطعة الحلوى إلى الصحن وقلت: نعم سيّدي، أنا هو.

ساد الصمت على الغرفة، زاد احمرار وجه العقيد كثيراً، اتسعت حدقتا عينيه ثم قال: أمجنون أنت؟

قلت: كلاّ يا سيادة العقيد.

قال غاضباً بنبرة حادّة: كيف لك أن تتغيّب عن الخدمة العسكريّة أربعين يوماً كاملة بدون إذن رسميّ لو لم تكن مجنوناً، هاه، أفهمني؟

قلت: ومن قال ذلك يا سيادة العقيد؟ أنا لم أتغيّب إلاّ بإذن رسميّ من المستشفى.

ردّ على الفور: مستشفى ...؟! ...ألديك ما يثبت ذلك؟

قلت: بالتأكيد.

قال مادّاً يده نحوي بعصبيّة: أين ورقة الإذن؟ هاتها...

تمالكت نفسي وقلت: هي في حقيبتي التي تركتها اليوم في اللواء ووليد يعرف ذلك.

التفت إليّ وليد حالاً، فامتقع وجه وليد وقال بثقة مفتعلة: نعم سيّدي، نعم، هي في اللواء.

هدأ غضبه قليلاً وقال بنبرة أقلّ حدّة: سنرى غداً...سنرى...

نظر إليّ وليد مذهولاً وراح يرمقني صامتاً. قلت: سيّدي، أتسمح الآن لي بتناول قطعة الحلوى؟

هزّ رأسه موافقاً وراح يحدق بي صامتاً...

صبّ كأساً من الشاي وقدّمه لي، ثمّ قال بصوت هادئ: بعد أن تنتهي من شرب الشاي أريد منك أن تقف على مستوى فاطمة وعزيز، فهما ضعيفان في اللغة الإنجليزيّة، وقد قربت الامتحانات.

قلت: حاضر سيّدي.

شربت كأس الشاي على عجل متجاهلاً سخونته التي كانت تكوي لساني فأبردها بسحبة هواء غير مسموعة بين الرشفة والأخرى ثم طلبت منه أن ينادي ولده وابنته، خرج لمناداتهم فهمس وليد بصوت منخفض: هل حقّاً لديك إذن من المستشفى يبرّر غيابك؟ لم أخفيته عنّي؟

قلت هامساً: من قال لك أن لديّ إذن؟

احمرّ وجه وليد وكزّ على أسنانه وهمّ بشتمي فأسكته دخول العقيد ثانية برفقة ولده وابنته.

سلّم الأولاد وجلسوا قليلاً، استأذنت العقيد بعدها أن أبدأ درسي معهما في غرفة أخرى.

دخلنا غرفة جانبية وأغلقت الباب خلفي وجلست على كنبة في صدر الغرفة وجلس الأولاد بجانبي فرحين وطفقوا يشرحون لي نقاط ضعفهم باللغة الإنجليزيّة ويشيرون إلى الدروس التي صعبت عليهم، وأنا شارد الذهن أجيبهم باقتضاب، غارقاً في التفكير بالغد المرعب....

تنبّه عزيز لذلك فسألني قائلاً: أستاذ! أراك شارد الذهن...هل نؤجّل الدرس ليوم آخر؟

أخذت نفساً عميقاً وقلت: سامحني يا بنيّ، أنا مهموم جدّاً وقد لا أستطيع العودة لتدريسكم ثانية.

فغر الصبي فمه متعجباً وقال: ولِمَ؟ خير إن شاء الله؟

قلت: قد يدخلني والدك السجن غداً فأنا في ورطة حقيقيّة يا بنيّ.

قال مستغرباً: السجن؟ والدي؟ ما الأمر؟

قطع حديثنا دخول امرأة العقيد وكانت أربعينيّة باشّة الوجه محجّبة، رحّبت بي قائلة: لقد طال انتظارنا لك يا أستاذ، فاطمة وعزيز بحاجة ماسّة لك، فأرجو أن تأتي كلّ يوم إلينا لتدارك ضعفهما باللغة الإنجليزيّة، سأكلّم زوجي أن يسمح لك بالخروج اليوميّ من اللواء.

بادرها عزيز قائلاً: يا أمّي! الأستاذ ثائر يقول إنّه في ورطة وقد لا يتمكّن من العودة.

قالت: ورطة؟ مع من يا أستاذ؟

قلت: تفضّلي، اجلسي حتّى أوضّح لك الأمر كاملاً.

جلست المرأة على كرسيّ قريب وشرعت بسرد حكايتي من بدايتها إلى أن قلت: والآن أخبرت العقيد بأنّ لديّ إذناً رسمياً، لكن في الحقيقة ليس لديّ أيّ شيء يبرّر غيابي.

لطمت المرأة خدّها بخفّة ثم وضعت يدها على فمها مستغربة وقالت: والآن ماذا ستفعل؟

قلت: لا شيء، سأقول لسيادة العقيد أنّي أضعت الإذن.

قالت: لكن سيفتّش عن البرقيّة المرسلة من المستشفى ولن يجدها وسيدخل المسؤول عن الذاتيّة في مشكلة وسيعاقب الرقيب فوّاز الذي أوصاه بالتكتّم عن غيابك.

قلت: هذا ما يشغل بالي بالضبط، الرقيب فوّاز، أمّا بالنسبة لي فأنا مستعدّ للسجن والعقوبة وقد يتأخّر تسريحي كذلك.

صمتت المرأة طويلاً ثمّ قالت: أستاذ ثائر، تابع دروسك مع الأولاد ولا تشغل بالك وسأتدبّر الأمر.

قلت: جزاك الله خيراً...لكن كيف...؟

قالت: هذا شأني...لا تشغل بالك...

قلت: أعدك أن لا أدّخر جهداً وسأكرّس كلّ وقتي للأولاد، هذا إن سمح لي سيادة العقيد بالخروج من اللواء وتجاوزت المشكلة.

خرجت المرأة، والتفتّ إلى تعليم الأولاد، وفي نهاية الدرس سرّوا كثيراً وطمأنوني قائلين: أستاذ! لن يحدث شيء ممّا تفكّر به...

انقضت ساعتان في بيت العقيد عزّام، استأذنّا أنا ووليد بعدها وعدنا أدراجنا إلى اللواء.

وما أن خرجنا وابتعدنا قليلاً حتى التفت إلي وليد قائلاً: يا أخي، سيمرّ عليّ وعليك يوم غد صعباً فقد أدخلتني معك في ورطة، وإن نجونا من العقيد فلن تنجو أنت من النقيب يحيى.

قلت: لا أظنّه يستطيع فعل أيّ شيء إذا ما تستّر العقيد على الأمر، وأظنّه سيفعل، ثمّ إنّه ليس من صلاحيّات النقيب يحيى التفتيش على ذاتيّة الكتيبة فالأمر عائد للعقيد عزّام كقائد كتيبة وليس لقائد السريّة. قال بصوت منخفض: أتمنى ذلك...

التفتيش

استيقظنا لصلاة الفجر وصلّينا أنا ووليد جماعة، دعوت الله كثيراً بعد الصلاة شعرت بطمأنينة في نفسي بعدها، تناولنا فطورنا باكراً، وتوجّهنا لساحة الاجتماع.

وقع نظر النقيب يحيى عليّ، فأقبل نحوي مسرعاً والشرّ بين عينيه، وما أن وصل حتّى بادرني بالقول: والآن يا حضرة الرقيب المتسيّب (مقلقلاً حرف الباء) أتظنّ أنّ الجيش ألعوبة بين يديك؟

حيّيته قائلاً: احترامي سيّدي، من قال أنّ جيشنا ألعوبة؟ نحن فداء للوطن والجيش والزعيم.

قاطعني في الحال قائلاً: النفاق والرياء هديّة الباطل إلى الحقّ...فلا تزايد عليّ واخرج من هذه الأبواب.

قلت في نفسي صدقت وأنت كذوب، حقاً النفاق والرياء هديّة الباطل إلى الحقّ، ولكن أيّ حقّ إذا كنت أنت من يصدّ أهل الحقّ عن عبادة إلههم الحقّ.

أجبته بهدوء: سيادة النقيب، من قال لك أنّي متسيّب؟

قال: لقد سألت طبيباً يعمل في المستشفى وأخبرني أنّه لا برقيّة ولا إذن لك، وحاولت الاستفسار من الذاتيّة فاعتذروا عن البحث عن البرقيّة متذرّعين بأوامر العقيد عزّام في هذا الشأن... لا تضيّع وقتي هيّا أرني إذن المستشفى حالاً.

قلت: بهدوء لك كلّ الحقّ يا سيادة النقيب، أوّلاً إذني من مستشفى الطوارئ رقم 6، وليس من مستشفى رقم 9 العسكريّ الذي أجريت به عمليّة الزائدة، أمّا الإذن فقد سلّمته لسيادة العقيد منذ قليل ووليد يشهد على ذلك.

تدخّل وليد حالاً وقال: سيّدي، إنّ ما يقوله الرقيب ثائر قد حصل فعلاً.

صمت قليلاً نظر إلي شزراً وقال: سأتابع الأمر بنفسي، هيّا انصرف إلى الساحة.

تابعت سيري قلقاً فنظر إليّ وليد وقال متبرّماً: يا أخي، طلبت شهادتي مرّتين وأوقعتني في إحراج...أنا شاهد (ما شافش حاجة) كما يقول المصريّون.

قلت: لا تقلق، فليس بمقدور النقيب تجاوز صلاحيّاته...ولن يجرؤ على سؤال العقيد.

عزف النشيد الوطنيّ وأدّينا تحيّة العلم ثمّ نادى العقيد عزّام على الرقيب سامح مسؤول الذاتيّة الجديد قائلاً: يا رقيب سامح، أحضر لي كلّ سجلاّتك وخاصّة سجلّ البرقيّات الخارجيّة والحق بي إلى مكتبي.

أعطانا الأمر بالانصراف، وبعض التوجيهات الروتينيّة ثمّ انصرف إلى مكتبه، وغادر الجنود إلى مهاجعهم.

انصرف الرقيب سامح خائفاً مهموماً فلحقت به على الفور، دخلت ذاتيّة الكتيبة وبادرته قائلاً: رقيب سامح، لا تقلق أظنّ أنّ الأمر سيمرّ بسلام.

نظر إليّ خائفاً وقال: من قال لك أنّ الأمر سيمرّ بسلام؟

قلت له: أمّ عزيز فوق القانون...

قال: لم أفهم...

قلت: زوجة العقيد، أمّ عزيز أظنّها حلّت المشكلة ...لقد طلب منك إحضار سجلّ البرقيّات ليوهم النقيب يحيى أنّه يدقّق بالأمر.

انفرجت أساريره قليلاً وقال: أتمنّى أن يكون ذلك صحيحاً، ثمّ حمل سجلّ البرقيّات وتوجّه إلى مكتب العقيد عزّام.

ساورني القلق وأنا انتظر عودة الرقيب سامح وما ستسفر عنه الأمور.

وبعد نصف ساعة عاد الرقيب سامح منفرج الأسارير يتراقص في مشيته فرحاً.

عانقني والبسمة تعلو محيّاه قائلاً: لقد كان كما توقّعت يا صاحبي، نظر سيادته في السجلّ قليلاً ثمّ ردّه قائلاً: اهتمّ بعملك أكثر يا سامح ولا تتصرّف بشيء دون علمي.

وفي الثالثة والنصف ظهراً أرسل العقيد عزّام حاجبه الخاصّ يخبرني أن أستعدّ للذهاب معه إلى العاصمة.

لبست ثيابي وتوجّهت إلى مكتب قيادة الكتيبة وكان يستعدّ للانصراف إلى بيته. حيّيته فردّ تحيّتي بابتسامة، حدّق بي طويلاً ثمّ قال: ستذهب معي إلى البيت لمتابعة الأولاد...حذار أن تتأخر عن الاجتماع الصباحيّ.

قلت: حاضر سيّدي.

انطلقت بنا السيّارة وانشغل هو بالحديث مع سائقه...وانشغلت بالتفكير في الفساد الضارب في مفاصل جيشٍ يساق الشباب إليه قهراً ليكونوا لضباطه عبيداً ولقادته خدماً، ويعلفون ذلاً ويشبعون إهانة، وكل ذلك بدعوى الدفاع عن الوطن وتحرير الأرض... ولا أرضاً حررنا ولا وطناً حمينا، فيالها من كذبة كبرى يصعب تصديقها...ويا له من جيش ذلٍ استخف زعيمه المتفرعن بقومه فأطاعوه فكانوا قوم سوء فاسقين.

وصلنا بعد ساعة حيّ القباني وترجّلنا من السيّارة، دخلنا المنزل وكان الأولاد بانتظاري. خلونا بالغرفة فلاحظ عزيز وفاطمة انشراحي وسروري فأخبراني عن جهود أمّهما المضنية لإقناع والدهما أن يكفّ عن التدقيق بمسألة تغيّبي وأن يعدل عن إنزال عقوبة السجن بي.

وبعد قليل دخلت أمّ عزيز تحمل الشاي فبادرتها بالشكر قائلاً: أثمرت جهودك يا أخت أمّ عزيز...ثمّ قلت مازحاً: الأخت أمّ عزيز فوق القانون...

جلست على كرسيّ قريب ضاحكة وقالت: لم يكن ذلك سهلاً يا أستاذ...صعق زوجي من تغيّبك بدون أذن رسميّ... رفض في البداية النقاش في الأمر وأصرّ على إدخالك السجن طبقاً للأنظمة والقوانين العسكريّة، فقلت له: أيّة قوانين وأيّة أنظمة إن كانت مطبّقة على الفقراء فقط، ألم تخبرني مرّة- يا أبا عزيز- أنّ عشرات المجنّدين يؤدّون خدمتهم العسكريّة في بيوتهم مقابل مبالغ مالية يدفعونها لقادتهم، وآخرون يعملون في

مزرعة قائد الفرقة، يؤدّون خدمتهم العسكريّة في رعاية خيله وأغنامه مقابل مبلغ ماليّ وضريبة معلومة يؤدّونها له. وعشرات آخرون يخدمون في بيته كالعبيد؟...ناهيك عن سرقة قوت الجنود الفقراء ورمي الفتات لهم كرواتب لا تكفي لإطعام كلاب أولئك القادة...ما أشبه قانونكم - يا أبا عزيز – بالقانون الذي حيّر الإعرابي...فابتسم زوجي وقال: ما أطول لسانك يا امرأة...

قاطعتها قائلاً: وما قصة قانون الإعرابي أختي أم عزيز...؟

ابتسمت قائلة: قصة يعرفها جيداً...دعك منها...

قلت: بالله عليك إلا ذكرتيها لي...

سكتت قليلاً ثم قالت: يحكى أن بدوياً قدم المدينة لمحاكمة استدعي لها لأن أغنامه رعت في أرض الحكومة، وأمضى ليلته في ملهى المدينة بإغراء من أحد السفهاء فقابل هناك قاض أسكرته الخمرة وراح يرقص ثملاً على آلة موسيقية سأل عن اسمها فقالوا إنها " القانون "، وفي الصباح حضر إلى المحكمة فوقع بصره على القاضي - الذي التقاه في ليلة الأنس- فحكم عليه بستين ليرة ذهباً غرامة، صرخ البدوي: بأي حق أدفع هذا المبلغ...؟ أجاب القاضي برصانة: ستدفع بحسب القانون، فرد الأعرابي قائلاً: يا لقانونكم ...ترقصون عليه في الليل وتحكمون به عباد الله في النهار.

ضحكت كثيراً قلت وماذا حصل بعدها...

قالت: كتم أبا عزيز ضحكته وهدأ غضبه ثمّ خرج إلى الشرفة وأشعل سيجارة راح ينفث دخانها غارقاً في التفكير، ثمّ عاد بعد قليل ليقول لي: اطمئنّي يا أم عزيز سأتغاضى عن تغيّب الرقيب ثائر فلا تقلقي.

ختمت حديثها مبتسمة تقول: يا أستاذ ثائر! قانون جيشنا يعبث به لصوص سكارى يحكمون به على المجند الفقير نهاراً ويرقصون عليه بمال الغني ليلاً...فلتكن أختك أمّ عزيز فوق القانون هذه المرّة...

ضحكت كثيراً وشكرتها وانشغلت بتدريس الأولاد...

****

أرطبون الروم

مرّت الأيّام مريحة لا يعكّر صفوها شيء، أرافق العقيد بسيّارته إلى بيته كلّ يوم، أمضي ساعتين مع ولديه ثمّ أعود إلى بيت صاحبي محمود، أنام عنده وفي السادسة صباحاً انتظر حافلة اللواء العسكريّة، التي تنقل الضبّاط وصفّ الضبّاط من العاصمة إلى اللواء يومياً...أسافر إلى مدينتي كلّ أسبوعين أمضي ثلاثة أيّام في بيتي ثم أعود..

قصدت ذات يوم موقف الحافلة التي تتردّد على العاصمة لنقلنا كالمعتاد، انتظرت في الموقف المخصّص، مرّت ساعة ولم تأتِ الحافلة ولم أرَ أحداً من العسكريّين، فمن الواضح إذاً أنه لم يسمح لأحد بمغادرة اللواء البارحة. ساروني القلق وأدركت أنّ أمراً خطيراً حدث في اللواء فقرّرت الالتحاق بالسرعة القصوى، أوقفت سيّارة أجرة وانطلقت سريعاً إلى طريق الجبل لأتسلّل من خلاله إلى داخل اللواء. وبعد خمس وأربعين دقيقة ترجّلت في أقرب نقطة للواء، واقتربت بحذر فوقع بصري من بعيد على حركة غير طبيعيّة داخله، حركة دؤوبة للآليّات والمجنّدين على غير العادة، الدبابات في حفرها والعنابر فارغة من ناقلات الجند وساحة الاجتماع خالية. تسلّلت بخفّة كلصٍ إلى الغرفة الكهف، فاستقبلني وليد صارخاً وكان يرتدي لباسه الميدانيّ كاملاً: هيّا، بسرعة هيّا، لباسك الميدانيّ الكامل، استنفار، استعداد رقم 1. سألت متفاجئاً: ما الأمر؟ قال: هيّا لا وقت نضيّعه، باقي عشر دقائق فقط للاجتماع، وسيحضر قائد اللواء ورئيس أركانه للتفتيش، قلت مذعوراً: تفتيش، تفتيش على ماذا؟

قال: التفتيش على الجاهزيّة، قلت لك لا تضيّع الوقت، لباسك الميدانيّ الكامل (الخوذة، المزودة، سلاحك الفرديّ، تلميع حذائك، جعبة الذخيرة..)

قاطعته قائلاً: سلاحي الفرديّ (المسدّس) في مخزن الأسلحة، والمزودة فارغة، وخوذتي مقطوعة الأربطة.

صرخ بوجهي: تدبّر أمرك حالاً، كفى...

خرجت أجري كالمجنون نحو مستودع الأسلحة، أحضرت مسدّسي وعدت مسرعاً لأبحث عن مزودتي التي لم أرها منذ أشهر طويلة، عثرت عليها أخيراً فارغة تحت سريري، عليّ أن أملأها بمستلزمات الطوارئ حسب التعليمات العسكريّة (إبرة، خيط، صحن، سكّين، منشفة، مواد إسعاف أوليّة..) لم أعثر على شيء من ذلك سوى صحن وسكّين، دوّت صفّارة الإنذار معلنة الالتحاق بساحة الاجتماع بالسرعة القصوى.

بسطت منشفتي الفرديّة على الأرض، وضعت عليها حجراً وصحناً بلاستيكياً وكفّنتهما بالمنشفة...ثبّتّ مسدّسي على خاصرتي، وضعت خوذتي على رأسي وشددتُها بخيط التقطته على عجل، وأصلحت من وضعها قدر المستطاع، ثمّ خرجت أجري نحو ساحة الاجتماع.

اصطفّت السرايا وسط الساحة، ترجّل قائد اللواء من سيّارة "الرانجروفر" العسكريّة بقرب الساحة ثمّ توجّه إلينا بهدوء، توالت خبطات أرجل الضبّاط وهم يؤدّون التحيّة العسكريّة لسيادته لدى مروره بهم، ثمّ انتهت بخبطة قويّة من رجل قائد الكتيبة رافقتها حركة خاطفة ليده لتستقرّ بجانب خوذته الفولاذيّة ثمّ قال بنبرة عسكريّة: الكتيبة جاهزة للتفتيش سيّدي العميد.

وقف قائد اللواء قبالته ضمّ رجليه باستعداد عسكريّ وردّ التحيّة، ثمّ استدار نحونا، ساد الصمت قليلاً على المكان ثمّ قال: سأبدأ بالتفتيش الآن عليكم فرداً فرداً.

اعتراني خوف شديد وهو يتقدّم نحونا، بدأ بتفتيش السريّة الأولى ثمّ انتهى من تفتيش السريّة الثانية ... أُغمض عيوني ويرتعش جسدي كلّما طرق سمعي صوت صفعة على وجه مجنّد نسي أو أهمل وضع شيء في مزودته، ثم تكال له الشتائم وتختم بفرض عقوبة السجن بحقه. انتهى تفتيش السريّة الثانية وأقبل نحونا، رفع قائد سريّتنا يده محيّياً فوقف العميد ليردّ تحيّته رافعاً يده كذلك، وكان على الطرف الآخر من الساحة المساعد أوّل سومر الذي توهّم أنّ يد العميد المرفوعة بشكل خاطف تعطيه إشارة لإطلاق صافرة الإنذار ولم ينتبه إلى أن رفعة اليد تلك كانت لردّ تحية النقيب قائد السرية، فضغط المساعد المسكين على الزرّ ودوّى صوت الصافرة في أرجاء اللواء، ممّا يعني انتشاراً فورياً للكتائب في الخنادق القريبة من الساحة مهما كانت الظروف.

انطلقتُ كطائر فرّ من ضغطة زناد صيّاد أحكم تسديد سلاحه، وخلال ثوانٍ معدودة ألقيت بنفسي في خندق قريب فأحسست بشيء صلب ارتطم برأسي من الخلف، ضحكت عندما تذكّرت أنّه الحجر الذي في مزودتي.

صرخ قائد اللواء: يا مساعد سومر...! يا ثور...! من أعطاك الأمر بإطلاق الصافرة؟

ارتبك المساعد المذكور وراح قائد اللواء يؤنّبه ...وبعدها أعطى الأمر باستراحة لمدّة ساعة واحدة لتناول طعام الإفطار على أن يستأنف التفتيش بعدها. وكانت فرصة كافية لي لاستكمال استعدادي للتفتيش.

كنت بعد ذاك الحدث أقسم كلّما أردت تغليظ يمين بقولي: "وحقّ الذي أنجاني من أرطبون اللواء70". فقال لي وليد يوماً: يا أخي! صدّعت رأسي بأرطبون الجيش فما القصة؟ أهي كلمة سرّ هي الأخرى...؟

قلت: يا صديقي! تنكّر داهية العرب - سيّدنا عمرو بن العاص - يوماً بهيئة رسول ليفاوض أرطبون الروم، وكاد ينكشف أمره فقرّر أرطبون الروم قتله لدى خروج عمرو - رضي الله عنه - من الحصن، حتّى لا يقال قتل أرطبون الروم رسول قائد جيش المسلمين، وكان قد أذهله ما رأى من فطنة عمرو وقوّة حجاجه ولم يكن يعلم أنّه هو قائد جيش المسلمين، فهمس رجل من نصارى العرب في أذن عمرو بن العاص مخبراً بمكيدة الأرطبون بعد خروج هذا الأخير من المجلس، فرجع عمرو قبل خروجه من الباب وطلب لقاء الأرطبون ثانية، وأخبره أنّ له عشرة من المستشارين يودّ لو يلتقي بهم أرطبون الروم، فطمع الأرطبون في قتلهم جميعاً وأمر بالكفّ عن قتل عمرو طمعاً أن يقتل عشرة من الدهاة يرجع بهم بدلاً من واحد فقط. فخرج عمرو سليماً وأقسم قائلاً: وحقّ الذي أنجاني من أرطبون الروم لن أعود لمثلها.

قال وليد وهو يجهز الطعام: أما الآن فأسرع يا صاحبي لنجهّز فطورنا قبل أن ينادي علينا أرطبون اللواء للعودة للاجتماع مرّة أخرى.

لم تنقطع اجتماعاتنا المتلاحقة ودروسنا الليليّة إلاّ بعد أربعة أيّام ثقيلة عادت حياتنا العسكريّة روتينيّة بعدها كما كانت، ولم نكن نعلم عن سبب استنفارنا المسمّى "استعداد رقم 1" لو لم يعلن قائد اللواء في خطابه الناريّ الأخير أنّ طائرات معادية اخترقت مجالنا الجويّ وقصفت منشأة في عمق بلادنا، مستدركاً أنّ زعيمنا البطل يحتفظ بحقّ الردّ على العدوان الغاشم في الزمان والمكان المناسبين. وهدأت الحركة في اللواء، كما هدأت نفوسنا بانتظار الردّ المناسب في الزمان والمكان المناسبين، ومازال عبّاس وراء المتراس.

****

إطلالة خطرة

مرّت الأيام الأخيرة من خدمتي العسكريّة ولم أنقطع عن العاصمة، كنت أبيت أحياناً في بيت محمود وأعود أحياناً أخرى للمبيت في اللواء، كما لم أنقطع عن زيارة أسرتي كلّ أسبوعين.

ذات يوم ذهب صديقنا الجديد أنور في إذن لزيارة أهله، وبعد مغادرته طلب منّي وليد مرافقته إلى مدينة السنانيّة لشراء بعض الحاجيّات، وفي طريق عودتنا من شعب الجبل مررنا بخيمة الدفاع الجويّ -المتقدّمة عن الكتيبة- للسلام على صديقنا ياسين، كان هذا الأخير منشغل البال مهموماً على غير العادة، سألناه عمّا أهمّه فأخبرنا أنّه سيواجه مشكلة نقص في ذخيرة بندقيّته وقد دنا موعد تسريحه، ولم يجد من يبيعه أو يعطيه ما يلزمه. طمأنّا ياسين وأخبرناه أنّنا نمتلك فائضاً أنا ووليد، جاد به علينا المسؤول عن مستودع الذخيرة ذات مرّة. سرّ ياسين كثيراً واحتضننا شاكراً، وعندما هبط الليل تسلّلنا إلى خيمته وسلّمناه ما يلزمه من الذخيرة فشكرنا كثيراً ثمّ عدنا إلى الغرفة الكهف.

بعد أيّام عاد زميلنا أنور من زيارة أهله وأحضر كاميرة حديثة ففرحنا بها...

اختلفنا في أمكنة التقاط صور الذكريات التي ستجمعنا نحن الثلاثة، ساهين عن قرار حظر التصوير في المناطق العسكريّة، تنبّهت لذلك فقلت: لكنّكم يا سادة، نسيتم أنّ التصوير محظور في المناطق العسكريّة.

ضحك وليد وقال: ذكّرتني بعمّي سمير عندما وقع أسيراً لدى العدوّ.

التفت أنور نحو وليد وقال: عمّك يا وليد؟ وماذا روى لك؟

قال وليد: منذ عشرين سنة خلت وقع عمّي أسيراً أثناء خدمته العسكريّة في معركتنا الوحيدة مع العدوّ، وكان مغمىً عليه لإصابته في المعركة، ولمّا أفاق من غيبوبته ألفى نفسه بين يدي ضابط من ضباط العدوّ، ولمّا شرع الضابط في التحقيق الروتينيّ معه (اسمه، اختصاصه العسكريّ، اسم قائد كتيبته..) رفض عمّي الإدلاء بأيّة معلومات، ولكي يصدمه المحقّق نفسيّاً فاجأه بصورة قائد لوائه يومذاك يجلس على كرسيّ أمام مكتبه، كاد عمّي يغمى عليه ثانية لكنّه تماسك ولم يدلِ سوى باسمه ورقمه العسكريّ رغم شدّة التعذيب. وبعد عودة عمّي من الأسر في صفقة تبادل للأسرى أشرفت عليها

الأمم المتّحدة يومها، كان يحدّثنا بذلك ثمّ تغرورق عيناه في نهاية حديثه، مقلّباً يده قائلاً: ليتني عرفت تفسيراً للغز الصورة الذي حيّرني.

قلت: إذاً إن كُشف أمرنا يا وليد سيجد عمّك تفسيراً للغز الذي حيره.

تضاحكنا قليلاً ثمّ قال وليد: لا عليكما، سنلتقط الصور بعيداً عن اللواء. وافقه أنور على ذلك وبعد أخذ وردّ استقرّ رأينا على تسلّق قمّة جبل وردان القريب لالتقاط الصور، فالقمة تحتوي على قلعة أثريّة وتطلّ على مناطق شاسعة. غاب عن أذهاننا - في غمرة انشغالنا بالحديث- أنّ قائد الفرقة أصدر أمراً يحظر الاقتراب من قمّة وردان وقلعتها لينقب عن آثارها بهدوء ثم يبيعها لتجار الآثار قابضاً ثمنها لنفسه فالرجل عنده مصارف كثيرة، كما كان يقول وليد ساخراً...

في صبيحة يوم استراحتنا الأسبوعيّة تناولنا فطورنا وأخذنا استعدادنا لنتسلّق قمّة جبل وردان، أخفى أنور كاميرته تحت سترته العسكريّة وخرجنا متسلّلين صعوداً نحو القمّة، كان الطريق صخريّاً وعراً أمضينا فيه ساعة وأربعين دقيقة متسلّقين حتّى ارتقينا القمّة. بدا في الجهة المقابلة لنا لواؤنا، تليه تلال كثيرة ووديان تخفي خلفها بعض أحياء العاصمة، وعن يميننا سهول خضراء واسعة تمتدّ طويلاً، إلى الخلف منّا صحون الرادار العملاقة التي لا تكفّ عن الدوران ليل نهار في كتيبة الدفاع الجويّ، استدرنا يساراً فهبّت علينا نسائم أيقظت الوجع الساكن في أرواحنا المتعبة سنين طوال، لقد بانت لنا أرضنا المغتصبة. أرسلت ناظري صامتاً أجوب سهولها الحزينة ووديانها الجريحة، تنفّست بعمق مستنشقاً عبق دم زكيّ ضمّخ ترابها يوماً، أطلقت لخيالي العنان فراحت تناجيني والدمع ملء مآقيها قائلة: لقد طال الانتظار يا أبنائي، فمتى يعود الفرسان؟ طال الليل يا بني ! مصلوبة أنا على جدران التاريخ...ملّ مني القلب وأنا أرقب الدرب يا أولادي...

قلت بصوت مسموع رافعاً يدي: فرسانك خلف تخوم الليل يتأهبون يا أمّاه... إنّهم قادمون أيّتها الحبيبة ، سيفور التنور ويأتي الطوفان قريباً، سيفيض وادينا دماً ليسقي أزهار الحرية ، ستتفتّح البراعم ويأتي الربيع يختال بالخير ضاحكاً، فكفكفي دموعك أيتها الحزينة.

نبّهني صوت أنور: استعدّ يا ثائر، صورة، سألتقط لك صورة. التفتّ نحوه نصف التفاتة وأنا أمسح دموعي... وقع في أذني صوت التقاط الكاميرة للصورة وتبعه على الفور صوت آخر قادم من السفح يصرخ: يا عسكريّ، يا عسكريّ،

فتحت عيوني متلفتاً حولي فلم أرَ أحداً ... بات الصوت مسموعاً بوضوح:

يا عسكري...هيّا، انزل إليّ حالاً ...حالاً...

التفتنا نحن الثلاثة ناحية الصوت فلاح لنا العقيد محسن قائد كتيبة الدفاع الجويّ، يرافقه شخص آخر يرتدي بيجاما رياضيّة زرقاء اللون، رجّحنا أنّه ضابط أمن اللواء... كانا يقفان على السفح المنحدر نحو اللواء لا يفصلهم عنّا سوى مسافة لا تتجاوز ثلاثمئة متر (على وجه التقريب).

وقفنا مذهولين ولم ندر ما نفعل، ولمّا لم نستجب لأمره بالنزول نادى على خيمة الدفاع الجويّ في شعب الجبل طالباً أحد الحراس. خرج جنديّ ملبّياً نداءه يحمل بندقيّة في يده. أصابنا ذعر شديد عندما أشار له العقيد بيده نحونا طالباً إلقاء القبض علينا، سمعنا صوت تلقيم البندقية ثم توجّه الجنديّ من فوره متسلّقاً القمّة نحونا.

أدركنا أنّنا في مأزق خطير ونحن نستعيد صورة العقيد نفسه يوم كان يتلو علينا أمر قائد الفرقة بعدم الاقتراب من قمّة وردان ويشدّد على ذلك، مهدّداً ومتوعّداً كلّ من تسوّل له نفسه ارتقاء القمّة.

صرخ وليد بصوت مرتعش: علينا أن نتصرّف حالاً، لا وقت لدينا.

تضاربت الآراء وارتبكت العقول، قال أنور: علينا الهرب جنوباً، ثمّ غيّر رأيه، فالمنحدر حادّ لا يمكن النزول منه، خطر لي أن نهرب شرقاً فتذكّرت أنّي أجازف بالاقتراب من كتيبة الدفاع الجويّ ممّا يسهّل إلقاء القبض علينا دون عناء، صرخ وليد غرباً.. غرباً، ثمّ تراجع قائلاً: لا فائدة فالسهل مكشوف والرماية علينا محقّقة الإصابة، قلت بصوت يائس: نحن محاصرون والوقت يمرّ، وانحدرت قليلاً نحو الجهة الأخرى فتبعني وليد وأنور وحجبتنا صخور القمّة عن نظر العميد وصاحبه والعسكريّ القادم على عجل. اختبأنا على الفور تحت صخرة كبيرة ورحنا نبتهل إلى الله بأصوات مخنوقة. لم يمرّ وقت طويل حتّى بتنا نسمع أنفاس الجنديّ اللاهثة بوضوح أعلى الصخرة، ثمّ ما لبث أن نادى بأعلى صوته: سيّدي العقيد، لا يوجد أحد على القمّة، فأتاه صوت العقيد -بالكاد يسمع من السفح المقابل-: ابحث جيّداً يا غبيّ، إنّهم ثلاثة، ابحث عنهم.

نظر إليّ وليد وهمس قائلاً: إنّه صوت ياسين يا ثائر، صوت الجنديّ ياسين فوق الصخرة، أخرجت رأسي من مخبئنا بحذر وناديت بصوت مرتجف: ياسين، ياسين، نحن هنا.

قفز ياسين من أعلى الصخرة مسدّداً بندقيته صارخاً: سلّم نفسك.

لطم وجهه عندما وقع بصره علينا وقال بذهول: أنتم؟ وليد، ثائر؟

قلت: أنقذنا يا ياسين، نحن في ورطة.

تلفّت حوله كالمجنون ثمّ قال: اسمعوا: عليكم الانطلاق خلال لحظة باتجاه لوائكم مبتعدين عن العقيد وصاحبه قدر الإمكان، وبعد دقيقتين سأطاركم متباطئاً وسأطلق النار، لا تخافوا ولا تتوقفوا، صرخ ياسين بنا بصوت منخفض: انطلقوا، هيّا.

عاودنا صعود الصخرة ثمّ رمينا بأنفسنا نحو السفح ننزلق فوق الحصى لمسافة مئة متر تقريباً ثمّ رحنا نقفز نزولاً من صخرة إلى صخرة غير مبالين بالدماء التي خضّبت سواعدنا وأرجلنا، يتبعنا صوت ياسين: قف، قف، أزّ الرصاص من فوق رؤوسنا بعدها، تجاوزنا العقيد وصاحبه غير بعيد، وهو يكرّر صارخاً: قف، قف، أطلق النار عليهم مباشرة يا عسكريّ، مباشرة يا غبيّ.

لم يستغرق هبوطنا من القمّة ثلاثين دقيقة على أبعد تقدير حتّى راح الصوت يبتعد عنّا ونحن نقترب من عنابر ناقلات الجند أسفل السفح، وصلنا أخيراً، بسرعة خاطفة دخلنا العنابر نلهث منقطعي الأنفاس، لبثنا برهة ثمّ تسلّلنا فرادى مستترين بها وقصد كلّ واحد منّا وجهةً مختلفة عن الآخر لتشتيت من يراقبنا ثمّ عدنا بعدها تباعاً إلى الغرفة الكهف ...متخفّين خلف التباب الصغيرة والصخور المتناثرة أسفل الوادي.

وصلنا الغرفة نرتجف خوفاً وأخفينا الكاميرة على عجل ثمّ ألقينا بأنفسنا على الأرض نلهث ونلهث حتّى هدأت أنفاسنا قليلاً.

مرّ حلم الرعب كابوساً لم ينته تماماً فما زال يشغلنا ياسين، ماذا لو عوقب الرجل؟ ماذا لو كشف أمرنا؟

قال وليد: لم يرنا أحد، أنا متأكّد من ذلك، لكن.. لكن ماذا حلّ بياسين؟ ربّما، ربّما..

قاطعته قائلاً: ربّما يشدّد عليه العقيد العقوبة فيفشي سرّنا.

ردّ وليد قائلاً: لا أظنّ ذلك، فياسين رجل شهم ولا أظنّه يفعل.

لم تمض سوى ساعة حتّى ضجّت مكبّرات الصوت تدعو كافة عناصر اللواء للاجتماع في الساحة الرئيسيّة.

استبدّ بنا القلق ونحن نتوجّه نحو الساحة، وارتعشت أجسادنا خوفاً عندما وقع بصرنا على العقيد -قائد كتيبة الدفاع الجويّ– يرافقه صاحبه وياسين.

اكتمل عددنا وقدمت الكتائب –كلّ على حدة– تتفقّد عناصرها، وحضر رئيس أركان اللواء فسلّم على العقيد وتحادثا على انفراد، أقبل بعدها العقيد –قائد كتيبة الدفاع الجويّ– قائلاً: بنبرة تهديد واضحة: على من كان في القمّة قبل ساعة أن يخرج.

ساد الصمت قليلاً ثمّ دار الهمس والهمهمة بين الحضور فأغمضت عيوني مردّداً بهمس: حسبنا الله ونعم الوكيل، سترك يا رب.

مرّت خمس دقائق ولم يخرج أحد، كرّر العقيد تهديده ثانية بنبرة غاضبة، ساد الصمت ثانية ولم يخرج أحد. أمسك العقيد بيد ياسين وجرّه إلى الأرتال قائلاً: ابحث عنهم فوراً يا عسكريّ.

راح ياسين يتفحّص الوجوه ببطء، مرّ بجانبي فسرت قشعريرة في جسدي، غمزني بطرف عينه بخفّة، ثمّ تابع تفحّصه، وبعد أن استعرض أفراد اللواء التفت إلى العقيد وقال: سيّدي! لم أعثر عليهم...

صرخ به العقيد بصوت عال: يا حيوان، دقّق، تفحّص.

عاد ياسين إلى التحديق في الوجوه الخائفة ثانية وما أن انتهى حتّى قال ثانية بصوت واثق: سيّدي، ليس أحداً من هؤلاء.

تقدّم العقيد منه غاضباً وعاجله بصفعة قويّة قائلاً: أنت من قصّر بالإمساك بهم يا حيوان.

احمرّ وجه ياسين، سكت قليلاً ثمّ قال: سيّدي، أظنّهم من لواء آخر، نحن في منطقة عسكريّة مكتظّة بالعساكر سيّدي.

استدار العقيد قائد الكتيبة نحو رئيس أركان لوائنا وحيّاه شاكراً ثمّ انصرف غاضباً مع رفيقه يتبعهم ياسين. أعطانا رئيس أركان اللواء أمراً بالانصراف إلى كتائبنا.

عدنا نحن الثلاثة يعتصرنا الألم مكبرين شهامة ياسين، وقرّرنا أن نتسلّل في جنح الظلام نحو خيمته لشكره على ما قدّم لنا من معروف.

هبط الليل فخرجنا نحن الثلاثة متوجّهين إلى خيمة ياسين في فم الشعب، وما أن وصلنا وناديناه حتّى خرج مصوّباً بندقيّته نحونا ضاحكاً يقول بنبرة عسكريّة: سلّم نفسك، قف مكانك يا مجرم.

عانقناه بحرارة شاكرين فضله علينا، أعدّ لنا كأساً من الشاي وجلس يحدّثنا قائلاً: مرّ الأمر بسلام واستطعت أن أردّ جميلكم يوم أمس.

قال وليد: هب يا ياسين أنّنا وقعنا بيده ماذا سيحلّ بنا؟

ردّ عليه ياسين قائلاً: يا أخي احمدوا الله، والله لو وقعتم في يده لكنتم أنتم من خان القضيّة وسلّم الأرض والعرض ونهب خيرات البلاد.

أمضينا ساعة مع ياسين شكرناه فيها كثيراً ثمّ ودّعناه منصرفين إلى الغرفة الكهف مطمئنّين.

يوم فار التنور

لقد حلّ يوم طال انتظاره، تختلط مشاعري ويغلبني البكاء كلّما قلبت ناظري بين أرجاء اللواء، خرجت مبكّراً، مررت بمصلاّي السرّيّ القديم خلف التبّة، تأمّلته طويلاً خاطبت بقعة سجودي قائلاً: وداعاً يا سجادتي الترابيّة الحبيبة...خررت عليها ساجداً وأسررت في أذنها قائلاً: لا تنسَي أن تشهدي لي يوم نردّ فيه إلى الله... قبّلتها وبللت الدموع خدّي. توجّهت من فوري لاستكمال إجراءات التسريح، طوّفت بين المكاتب لتوقيع براءة ذمّتي من كلّ ما عهد إليّ أثناء خدمتي العسكريّة. كان آخر مكتب هو ذاتيّة اللواء، حيث استلمت بطاقة هويّتي المدنيّة فقبّلتها بعد طول غياب. توجّهت بعدها إلى الغرفة الكهف، مررت في طريقي بعنابر الدبّابات وناقلات الجند، تأمّلتها طويلاً وغرقت في التفكير ثمّ قلت: متى ستنطقين أيّتها الخرساء؟ وإلى متى تظلّين هكذا قابعة في جحورك بلا حراك؟ خلتها قالت: سأنطق يوماً لا محالة.

قلت: حسناً تفعلين، تنطقين إذاً ليخرس الأشرار.

عبست في وجهي قائلة: بل أنطق لأسكت الأحرار، لأنشر الخراب والدمار، لأنحر الورد وأغتال البراعم، لأردّ القطيع إلى المسار...فأنا مُلك الزعيم...أنا يده التي تبطش ولسانه الذي ينطق...قصره في ظلي وعرشه فوق قذائفي...أنطق إن غضب...وأسكت إن رضي...

مشيت حزيناً واجماً نحو الغرفة الكهف وكان وليد وأنور بانتظاري، حيّيتهما بصوت مخنوق فردّا تحيّتي بصوت لا يكاد يسمع، راح وليد يسترق النظر إليّ وأنا أحزم حقيبتي وتخنقني الدموع.

قمت مودّعاً، عانقت أنور بحرارة فهمس في أذني: يا ثائر! ستكون صورك التي التقطناها على قمة جبل وردان جاهزة قريباً ...شكرته كثيراً وقلت: استلمها منك عندما نلتقي...

قال: وإن لم نلتق...؟

قلت باسماً: إن لم نلتق سلمها لأولادي كأمانة...

رفض وليد توديعي في الغرفة الكهف وأصرّ على السير معي إلى شعب الجبل، مررنا بخيمة ياسين الشهم، كان يستعد لتسريحه من الخدمة العسكرية الذي سيحل موعده بعد أيام، كان فرحاً وقلقاً في نفس الوقت، قال لي: يا ثائر! أمي أرملة عجوز تنتظر عودتي بفارغ الصبر لتزوجني بابنة أخيها، ابتسم قائلاً: الله يحفظها أم ياسين...لقد نذرت - رغم مرضها العضال - أن ترقص في عرسي. أكمل مغرورق العينين بصوت منخفض: بل قالت أنها ستغني لي موّال غنّته لأبي يوم زواجهما...

بادلته ابتسامة لطيفة واحتضنته مودعاً وقلت: يا لقلوب الأمهات يا ياسين...!! أسأل الله أن يطيل لك في عمرها ويسعدك في زواجك بابنة خالك.

جاوزنا خيمة ياسين حتّى المنحدر، مشيت بعدها خطوات فسمعت صوتاً قاصفاً كالرعد قادم من الجنوب يصرخ: فليسقط الزعيم ...فليسقط الزعيم...ضجت الوديان بالنداء ورددت قمم الجبال صداه...وأقبل غيم أسود كثيف من الشمال...وعلا صوت نباح كلاب القمامة وكشّر الكلب الزعيم أحمر العينين عن أنيابه وتوافدت كلاب حمراء كالدم من الشمال الشرقي وكلاب سوداء كالليل من الشرق...تبعتها كلاب صفراء كالسم الزعاف من الغرب...واختلط صوت النباح القبيح بصوت الرعد المخيف... ونطقت مدافعنا الخرساء حمماً صبّتها على ربوع بلادي ...وتكاثف الغيم الأسود وأمطرت السماء براميل موت وصواريخ دمار...واشتعلت الأرض ناراً ...

عصفت ريح كريهة سامة فوقع بصري على أطفال يصارعون الموت اختناقاً يستجدون نسمة هواء...يختلجون ...يرتعشون ...ثم تهمد جثثهم الغضة وتحلّق أرواحهم البريئة إلى علياء السماء... في أقبية مظلمة أبصرت أجساداً بل هياكل بشرية تئن ألماً وجوعاً... ومن كهوف مظلمة كان ينبعث صوت استغاثات نساء حرائر

تصرخن: النجدة...النجدة... يا ثائر...!! فاقشعر جلدي وغلى الدم في عروقي..صمّ صوت العويل والبكاء الآذان...وفاض الوادي دماً ودموعاً... طفحت البقاع حزناً وطاف طائف الموت على كل مكان...

بين سحب الدخان أبصرت وليد جريحاً ينزف وقريب منه أشلاء ياسين ممزقة، بينما كان أنور يعتلي قمة جبل وردان ثانية وسط الدويّ والهدير والدخان، يلتقط صوراً بكاميرته الصغيرة للمشهد الرهيب...لكنه لم يلبث أن خرّ صريعاً محتضناً كاميرته بعدما اخترقت رصاصة غادرة جبينه الأسمر ...خطف بصري شعاع للشمس متسلل من بين الغيوم السوداء أضاء الأفق فوقع بصري على وليد رافعاً يده الجريحة صارخاً بصوت يشق عنان السماء: ثاااااائر...يا ثاااائر...ماذا حصل يا ثائر...؟!!...

صرخت مجيباً : لقد فار التنور...لقد فار التنور يا وليد...

عندما يفور التنّور	1
(يوميّات عسكريّ)	1
إهداء	1
توطئة	2
المواطن المستقرّ	3
يوم من أيام القهر	6
عمر الخيّام يرتجف برداً	12
محكمة جائرة	14
عندما يتحول المقهور إلى قاهر	16
سنوحي وإخناتون	17
أنا ضابط	27
عندما يتكلّم القهر	30
فارس الظلّ الحزين (دونكيشوت)	37
السجن أحب إلي...	41
عفو الشجعان واستسلام بطيحان	46
فأووا إلى الكهف..	51
إن مع العسر يسراً	55
الرشوة المباركة	58
من ترك شيئاً لله...	62
يوم عاصف	64
صورة مضّادة...	68
إلا من رحم...	71
كلمة السرّ	73
امتياز مع مرتبة الشرف	75
منحة في محنة	78
خبر صادم	81

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا... 82
مناورات حربيّة في معركة السلام 85
ضحك وليد وراح يبدل ملابسه ثم شرع في إعداد الطعام، بينما استلقيت أنا على سريري لآخذ قسطاً من الراحة. 87
مغامرة مرعبة 87
أمّ عزيز فوق النظام 89
التفتيش 94
أرطبون الروم 97
إطلالة خطرة 100
يوم فار التنور 105